محمد سعيد الريحاني

موسم الهجرة إلى أي مكان

(مجموعة قصصية)

موقع ريحانيات

“Season of Migration to anywhere”

(Short Stories)

By

Mohamed Saïd Raïhani

(Arabic Version)

2006

عنوان الكتاب : **"موسم الهجرة إلى أي مكان"**
نوع الكتاب : مجموعة قصصية
الكاتب : محمد سعيد الريحاني
الطبعة: الأولى، 2006
الناشر: محمد سعيد الريحاني
رقم الإيداع: 0370 /2006
الترقيم الدولي (ISBN):978-9954-8654-0-3
المطبعة: طوب بريس، الرباط / المغرب

النصوص

طائر الربيع

" انظر إلى كل شيء كما لو كنت تراه إما لأول مرة أو لآخر مرة. آنذاك ستصبح حياتك على الأرض مليئة بالسعادة".

بيتيه سميت
Betty Smith

عندما يحل فصل الربيع، لا أطلب غير الشاي في سطيحة هذه المقهى، وأستمتع برؤية النادل يحمله لي في إبريق صغير يطل النعناع العطر من فمه. حتى إذا وضعه على المائدة قبالتي، رفع يده إلى الشجرة فوق رأسينا وأقتطع منها زهرا طريا وأغمسه لي في الإبريق وانصرف.

عندما يحل الصيف وتكبر الشمس وتقترب، تدب الحماسة في المتحفظين والحذرين وتشتعل الروح في الأحياء وتنتفض الأجساد على جنبات البحار والانهار والوديان. آنذاك، أحب اللون الأصفر، لون الطاقة والحيوية والتجدد... وأشعر بالإنتشاء .

وعندما يحل الخريف وتتساقط أوراق الأشجار وبتلات الورود وتهب رياح التغيير وتنخفض السماء الرمادية بثقلها لتحاور الحقول والوديان، آنذاك، أحب اللون البني: لون التغيير...وأشعر بالتجدد .

وعندما يحل الشتاء وتتساقط الأمطار وترتوي الأرض وتمنح حرية التعبير لصغار الفلاحين فيتنبؤون بمحصول الزراعة ويقارنون الغلات الممكنة بالغلات الفائتة... أشعر معهم بالحرية.

وعندما يحل الربيع ثانية، يحل الجمال في كل مكان: النحل والورد والعصافير والخضرة والدفء وصغار الحشرات وكبار الحيوانات وضعاف النباتات..كل يعانق حبيبة أو تتودد لحبيب وتترجى ذرية .كل يلتحف بالخضرة ويتواصل بالأخضر. مع الربيع، تضحى الحياة خضرة على خضرة... وأشعر بالانبعاث، بالولادة من جديد.

الأرض تنبض بالتغريد والشدو. السماء تومض بالأجنحة الحية : الخطاطيف، رسل الحرية والتغيير، تحلق في كل مكان. لا يمكنك أبدا التكهن باتجاه طيرانها.إنها تنطلق ذات اليمين وذات الشمال، تسرع الإيقاع وتبطئ، تغير اتجاهها كما تريد، فرحة بالانبعاث...

الناس هنا يقدسون الخطاف ويحرمون صيده أو حتى طرده من سقوف بيوتهم. والنتيجة أن الخطاف يستمتع بالربيع حتى آخر ليلة. يحلق دون خوف. يطير دون قيود ويحط على الأشجار، على حبال الغسيل، على الأسلاك الكهربائية ويبصق على رؤوس المارة ورواد المقاهي،على السطيحة، تحته ويظل ينتظر منهم رد فعل ما من نوع ما. لكن الناس تكتفي بمسح رؤوسها بأكفها وتبتسم حين ترفع عيونها إلى الأعلى وتتأكد أن الأمر لا يعدو كونه بصق الخطاف، طائر الربيع.

4 أبريل 2005

لكل سماؤه

" المنطق يأخذك من ألف إلى باء. أما الخيال فيسافر بك إلى أي مكان."

ألبيرت آينشتاين
Albert Einstein

على الأفق الوردي ، ترسو شمس المغيب باسطة، للتواصل مع الشاطئ، جسرا بلوريا يتلألأ على صفحة البحر الذي يذاعب بأمواجه الخفيفة قدمي الطفل الحافيتين: يدفعهما بلطف حين يتقدم نحو الصخور ويسحبهما معه حين يتراجع إلى زرقته، يدفعهما ويسحبهما، يدفعهما ويسحبهما...

سأل الطفل أباه مشيرا إلى البحر:

- أبي، أهنا تعيش القروش ؟

فأجاب الأب مطمئنا صغيره:

- نعم، ياعزيزي، ولكن بعيدا من هنا، هي تفضل المياه الدافئة في أعالي البحار.

- هي قوية !

- نعم: القرش هو ملك البحر ...

- وهنا في البر، من ملك البر ؟

- السبع، يا ولدي. السبع هو ملك البر والغاب.

- ومن الأقوى، السبع أم القرش؟

كان الطفل يبدو متحمسا للموضوع. ربما كان يتصور، أمام عينيه، كل سؤال وكل جواب قصة مصورة وينتصر لأحد شخوص الحكاية.

انتبه الأب للأمر فأجاب على السؤال بسؤال آخر:

- وكيف لأحدهما أن يتفوق على الآخر وكل يعيش في مملكته؟ السبع في الغاب والقرش في البحر. وحتى إذا ما حاول الواحد منهما أن يغير على الآخر مات اختناقا إما على التراب، إذا كان قرشا، أو داخل الماء، إذا كان سبعا.

ابتسم الطفل راضيا وظل ينظر إلى البحر بإكبار وسأل:

- وماذا هناك في البحر؟

- الحياة.

لم يفهم الطفل قصد أبيه فاستدرك الأب الموقف:

- يوجد في البحر نفس ما تراه على البر حولك، يا ولدي: الجبال والهضاب والوديان والأغوار والأشجار والأحجار والنباتات والضياء والظلام... إن الحياة هنا، في البر، تقابلها حياة موازية في البحر. وحيوانات البر تقابلها كذلك أسماك في البحر.

- وهل تتسع كل هذه التضاريس والأحياء والأشياء داخل البحر؟

- ما يوجد في البحر أكبر حجما وأكثر تنوعا مما يوجد في البر.

ضيق الطفل عينيه وهو ينظر بعيدا إلى الأفق:

- ولكن سطح البحر هادئ بلا نتوءات ولا رؤوس تطل من الماء!!!

- لايغرنك السطح، ياولدي.

رفع الأب بكفه وجه طفله الصغير إلى الأعلى وقال له:
- هل ترى تلك القبة الزرقاء الهادئة؟
- السماء، يا أبي؟
- تلك سماؤنا وسماء السباع. أما سطح البحر فهو سماء الأسماك والقروش.
ثم بعد فترة، أضاف:
- إذا خرج البحريون عن سطح البحر، سمائهم، اختنقوا وماتوا. وإذا نحن، البريون، أطللنا برؤوسنا خارج سماءنا، احترقنا ومتنا!
ثم استطرد:
- لكل، يا ولدي، سماؤه. هناك أشكال من العوالم وأشكال من المخلوقات وأشكال من طرق التفكير وأشكال من سبل العيش... هناك اختلافات لانهائية في هذه الحياة. وهذه الاختلافات هي سر الحياة الكبير ونبع غناها الأكبر. ولولاها ما كنا لنستمتع بهذه اللحظة وبهذه الوقفة على هذا الجمال الذي سيجعلنا نعود للبيت أكثر تجددا وأكثر سعادة.
كانت الشمس قد بدأت تسحب بساطها المضيء عن سطح البحر وتختفي رويدا رويدا في الأفق بين السماءين حين شعت السعادة في جوارح الطفل وهو يعلن من وحي اللحظة الملهمة:
- الحياة رائعة، يا أبي!
قالها وهو يضم يده إلى يد أبيه: الأب ينظر إلى السماء والطفل إلى البحر.

27 يوليوز 2005

حفل راقص

" الكثير من الناس يضيعون نصيبهم من السعادة، ليس لأنهم لم يجدوها، ولكن لأنهم لم يتوقفوا للاستمتاع بها"

ويليام فيذر
William Feather

البوليس يطوق المكان حفاظا على الأمن العام.

باب قصر المهرجان الضخم أغلق وفتحت بوبية صغيرة في الجدار يقف شرطي في مدخلها: يتسلم التذكرة من يد الزائر، يقطعها إلى نصفين، يحتفظ بالنصف ويعيد للزائر النصف الثاني ثم يقتحم جسده تفتيشا وتلمسا ودلكا... حتى إذا لم تصادف يداه وخزا معدنيا تحت لباسه، دفعه بقوة إلى داخل البوبية ليتفرغ للزائر الموالي في الطابور الطويل المنتظر على يسار الشرطي لولوج الحفل الذي سيبدأ بعد ساعات...

داخل قصر المهرجان، الباعة أكثر من الجمهور. أغلب الباعة أطفال يبيعون الشاي أو القهوة الجاهزة والشطائر المحشوة بالبيض والبطاطس المقلية والليمونادة بثلاثة أضعاف ثمنها خارج السور. لكن الناس والباعة تتصايح وتتنادى وتتبادل المال والشطائر والشكر واللاشكر على واجب...

موسيقى أولية صاخبة اندفعت دون سابق إشعار من الأبواق الضخمة على المنصة حيث لازال التقنيون يرتبون الآلات الموسيقية وخيوط المايكروفونات ومصابيح الإنارة. لكز أحد الزوار صديقه لمصاحبته لحلبة الرقص لكنه لم يلق تجاوبا:

- لم تبدأ السهرة بعد. هذا مجرد شريط موسيقي شغل فقط لملء الفراغ ريثما تحل الجوقة الموسيقية ويكتمل التجهيز على المنصة وتمتلئ المدرجات والكراسي بالعدد المتوقع من الزوار...

اقتنع الآخر وجلس يوقع برجله على الأرض متوترا أو مستمعا بالأغاني الصاخبة التي تغرق ضجيج الأطفال وهم يجرون في الحلبة والممرات وصياح الباعة وهم يتسلقون المدرجات بسطول الليمونادة الدافئة وسلال الشطائر الباردة يتخطون الزوار الجالسين الذين أنفقوا ما كان لديهم على تذكرة الدخول وجلسوا ينتظرون العرض بصبر غير مشكوك فيه ...

على المنصة، اقتلع احد التقنيين المايكروفون لاختباره :

- " آلو!... آلو!... أيوا... أيوا!... واحد!...واحد!..."

أحد الجالسين ذكرته العبارات الشذرية للتقني بخطابات الساسة والحكام ومحترفي السياسة، فصاح مقلدا:

- " أيها الشعب الأبي!... أيها الشعب الأبي!... واحد!... واحد!... أيها الشعب الأبي!... "

بعض مجالسيه من المخمورين استلقوا على ظهورهم من الضحك بينما أخفى الصحاة واليقظون وجوههم بين أكفهم خوفا من عنف محتمل هم في غنى عنه، وهم يتهامسون:

- الويل له! سيفسد لنا السهرة! حتما، سيفسدها...

بعضهم قام ليغادر المكان في اتجاه مكان آخر على مدرج آخر بينما انتفض الباقون على إيقاع أول أغنية للجوق الذي وصل إلى المنصة للتو.

فيضان الحركة يتماوج في كل المدرجات. الحلبة تتماوج بالراقصين الهائجين، الممرات حبلى بالراقصات الخجولات من العيون الناقدة، والمدرجات ملآى بالعجائز والمعطوبين وضعاف البصر والأقزام الذين يحرسون مقاعد ذويهم من تطاول التائهين والقادمين الجدد وكل من استحال عليه الحصول على موطئ أست...

على الحلبة، الكل يرقص والكل يدور حول ذاته ويوقع إيقاعات تختلف عن إيقاعات الجوق وباقي الراقصين. النساء تراقصن النساء، والرجال يراقصون الرجال. النساء تعانقن النساء والرجال يعانقون الرجال والأطفال تائهون عند أقدام الجنسين معا...

أحدهم خرق قانون الرقص العمومي وتقدم للرقص مع فتاة قبلت مصاحبته للتو، تحت أنظار ساخطة تحاول إيجاد تصنيف ساقط للفتاة السهلة ولكنها تترفع عن تصنيف الفتى الذكر...

الفتاة والفتى يرقصان مستمتعين بالإيقاع واللقاء. الفتى يوقع برجليه ككل الرجال، والفتاة تعتصر ردفيها ككل النساء وتغني النص الكامل للأغنية التي لا يحفظ منها الفتى غير اللازمة التي ينتظرها بفارغ الصبر كي يلتحق بهاشاديا:

زيديني عشقا، زيديني
يا أحلى نوبات جنوني
زيديني...

فيندمج مع اللازمة حتى يخرج عن ميزان الرقص لكن الفتاة تعيده إلى الميزان بمجرد لمسة وابتسامة على إيقاع سعيد وكلمة حلوة لمغن صار أحلى وهو ينادي عموم الراقصين:

- " لنرقص! فليس لنا غير هذه الليلة. لنرقص! فغدا سنمر أمام باب قصر المهرجان المقفلة وستقشعر جلودنا لتذكر هذه اللحظة السعيدة. لنعش سعادة ليلتنا هذه بعيون ومشاعر الغد ... فلنرقص، ولنستمتع بالرقص !"

2004/08/16

الساعات الثلاث

" لتحقيق إنجازات عظيمة، علينا ليس فقط الفعل بل الحلم كذلك، وليس فقط التخطيط بل الإيمان أيضا."

أناتول فرانس
Anatole France

لا أعرف لماذا يتسلل أبي خفية إلى الغرفة السفلية المهجورة كل فجر ويقفل الباب وراءه.
أتراه يتعبد؟
لكن العبادة لا تستلزم كل هذا الحذر.
أتراه يمارس طقسا سحريا؟
لكنه بلا أدوات: لا مجمر ولا محبرة ولا أعشاب ولا أثواب ولا أعضاء حيوانية...
هو يقرأ فقط. ومن خلال ثقب المفتاح على باب الغرفة يمكنني أن أرى بجلاء اهتمامه بالنص بين يديه. فحدقتاه متسعتان، ورأسه أقرب إلى الكتاب المهترئ بين يديه، والصفحات تنقلب بسرعة، وأنفاسه في صمت الفجر تسمع سريعة وغير إيقاعية ...
أتراه يتصفح كتابا إيروسيا ؟
ظللت أرقبه حتى انتهى من قراءته وطقوسه وأغلق الكتاب ثم وضعه في دولاب في خزانة مغبرة ترتكز على رجلين في الأمام وعلى الحائط في الخلف. أغلق الدولاب بمفتاح فضي ثم وضعه في حقيبة قد ابيض سطحها غبارا. أغلق الحقيبة بمفتاح نحاسي ثم وضعه في علبة خشبية سحيقة القدم ثم أغلق العلبة ووضع مفتاحها الصغير تحت الحصير. فانسحبت إلى ظلام "المخيزن " لأفسح له المجال للانصراف الآمن ...
تابعته من الخلف وهو يصعد السلم درجة درجة ورأيته ينظر للساعة على معصمه: السابعة صباحا. لن يعود أبي من العمل قبل منتصف النهار وهي فرصة كافية لإعادة قراءة كتاب أبي المفضل في المكان المفضل ولكن في غير الفجر...
رفعت الطرف الأيمن من الحصير. تلمست بيدي الأرض تحته بحثا عن المفتاح الأول. وجدته. فتحت العلبة فتدفقت رائحة الخشب القديم إلى خياشيمي. انتشلت المفتاح النحاسي وفتحت الحقيبة. إلا أنني لم أجد في الحقيبة المفتاح الفضي!... ولكنني رأيت أبي بأم عيني وهو يضع مفتاح الدولاب في الحقيبة!...
حركت الحقيبة بقوة، سمعت صليلا معدنيا لعدة قطع في أجزاء خفية داخل الحقيبة. رفعت الحقيبة. نفضتها. تساقطت عدة مفاتيح منها. جربت فتح الدولاب بالمفتاح الأول بالثاني بالخامس...
أخيرا، انفتح الدولاب !
أخيرا، ها هو الكتاب اللغز !
هل هو مصحف ؟
لا، الكتاب منسوخ بالخط المغربي ولكنه، قطعا، ليس مصحفا. ربما هو وصية لأن الكتاب يبدأ بشجرة الأنساب تتفرع في أعلى الصفحة وتتجذر في الأسفل. لكن اسمي العائلي يتكرر في كل فرع وفي كل جذر: هؤلاء،إ ذن، أجدادي وهذه خريطة الوصول إليهم.

الصفحات الموالية تحمل أسماء أجدادي كعناوين. أما النص، وهو في الغالب من فقرتين أو ثلاث، فيبدو بخط يد الجد المذكور في العنوان أعلى كل صفحة. كل نص مخطوط بيد مختلفة. هذا يعني أن هذا الكتاب عمره قرون لأنه عايش كل أجدادي. وهذا وحده يشفع لحالته المتردية بفعل الزمن ورطوبة المكان وشغب الأيادي الفضولية للأجيال المتعاقبة على قراءته وتدوين ملاحظاتهم...

ماذا كتب الأجداد ؟

قرأت الشهادة الأولى.

انتفضت.

قرأت الشهادة الثانية.

تمكنت مني القشعريرة.

قرأت الشهادة الثالثة، العاشرة، التسعين...

أنا أرتجف.

هل أنتمي لسلالة الملاعين؟

هل هي اللعنة ؟

هل كان كل أجدادي أشقياء ؟

كيف تمكن الشقاء من سلالة بأكملها ؟

كل أجدادي يقرون بخط يدهم بشقائهم وبؤسهم لعدم التزامهم بنص وصية الجد الأكبر الذي حدد لهم السعادة في عدم إغفال "**الحاءات الثلاث** ".

أين الوصية، إذن ؟

قلبت الكتاب صفحة صفحة. من اليمين إلى اليسار. من اليسار إلى اليمين...

أين الوصية، إذن ؟ !

الوصية يجب أن تكون في مقدمة الكتاب مادامت تحيل على الجد الأكبر!...

الوقت لا يرحم والقلق يتمكن مني وأصابعي تفقد صوابها والكتاب المهترى يفقد خيوطه وأنا أفقد أعصابي ولا أنتبه إلا وأجزاء الكتاب قد انفصلت عن الغلاف وسقطت على الحصير وتناثرت أوراقه وسط زوبعة من الغبار وضجيج من السعال.

في العجلة الندامة !...

خرجت من الغرفة لأستطلع رد الفعل في البيت: لا أحد يهتم.

ألقيت نظرة على الشمس: لا زال الوقت في صالحي.

عدت إلى الغرفة ثانية.

جلست هذه المرة على الحصير. سحبت أنفاسا عميقة لأطرد التوتر داخلي. أستنشق هواء جديدا. أزفر التوتر. استنشق هواء جديدا. أزفر التوتر. أستنشق. أزفر...

الآن، عاد إلي هدوئي وصار بإمكاني إعادة ترتيب الأوراق والأجزاء بين دفتي الغلاف:صفحة بعد صفحة وجزء بعد جزء و... أوه!

ها هي الوصية !

ها هو لغز الألغاز !

ها هو مفتاح السعادة !

ها هي الحاءات: "**الحاءات الثلاث**"!...

(1)– حاء الحرية:

" جميعنا، يا ولدي، يمتلك خيطا رفيعا داخله يصله بالطفل الصغير الذي كانه: ببراءته وسعادته وخفته وشغبه الجميل في تنشيط السؤال وإباحة التجريب. لكن المعركة الوجودية بأسرها، يا ولدي، تتركز حول الإمساك بهذا الخيط. فإذا أمسك به غيرك أو رهنته إياه، تحركت بإرادة الآخرين ورقصت لرغبتهم وهدأت لسكونهم وبكيت لبكائهم... آنذاك، اعلم، يا ولدي، أنك صرت أرجوزة في يد غيرك أو دمية من دمى العرائس.

أما أن تمسك بالخيط فهذا ما لا يمكنك تحقيقه إلا عبر بوابة الحاء الثانية، بوابة الحلم: مرشدك لعالمك العميق، وصديقك الذي لا يأبه لقلقك فيضعك أمام المرآة ويعرض لك وجهك الحقيقي باسمك الحقيقي ومحيطك الحقيقي...

فمرحبا بك، يا ولدي، في عالم الحلم: عالم الحقيقة !"

(2) - حاء الحلم:

" قد تكون ،يا ولدي، عاشقا للموسيقى والنغمة المخلصة من سطوة الصمت والخرس. وقد تكون عاشقا للتشكيلات اللونية المحررة للبصر من نمطية الرؤية. وقد تكون عاشقا للشعر فتتجدد نبضاتك على وقع الصور المبتكرة والوزن الأصيل. وقد تكون أيضا عاشقا للفرجة التي تفتح العوالم الصغيرة على العوالم الكبيرة وتبدأ بالهزل لتنتهي بالجد ... لكن العشق، كل العشق، يا ولدي، هو أن تعيش حلما في غفوتك وتتذكره كاملا في يقظتك. وهذا مالا يحدث ل" يا أيها الناس ": أن تتخلص من كل قوانين الطبيعة وتطير حرا كاليمام، خفيفا كالغمام، طليقا كالريح. أن تلقي جانبا كل قوانين المجتمع وتتعرى كطفل فرحان بتعلمه المشي، وتجري مبتهجا في الشوارع الرئيسية غير آبه بقوانين السن والنوع والقبيلة والعرق... " العشق يا ولدي هو أن تعيش **حاء الحلم** ".

<u>(3) – حاء الحب:</u>

" الحرية، يا ولدي، تستلزم تأطيرا وتنظيرا. والحلم يؤدي هذه الخدمة للحرية. لكن الحلم يتوقع فعلا واقعيا يحققه على الأرض. وهذا الفعل الواقعي هو الحب. الحب، يا ولدي، رحلة لا تنتهي. إنه مغامرة تكسبك النضج. ومقياس النضج هو العطاء. فالحب عطاء من الوقت والمال والعقل والروح والجسد... ولذلك، فالحب، يا ولدي، تجل من تجليات النمو النفسي والعقلي والجسدي. ولكنك، يا ولدي، لن تحب ولن تستمتع بالحب ما لم تحب نفسك: أحب ذاتك قبل أن تحب الآخرين. عد إلى ذاتك. تعرف مزاياك. راقب نقط قوتك. استمتع بجمالك أمام المرآة. تذكر لحظات السعادة والذكريات المشعة في حياتك. راجع معجمك الإيجابي وأسلوب خطابك المحبوب عند كل المجالس. افتخر بما تتميز به عن باقي الناس، فالاختلاف وحده مبرر استمرارية الوجود...

يا ولدي، أحب نفسك كي تحب الآخرين. إنك إذا امتلكت الحب حررت الأشقياء من البشر، وإذا امتلكت السعادة أفرجت عن البؤساء من الناس، وإذا امتلكت النور أضأت ما حوليك..."

الأن الساعة الثانية عشر زوالا.

طويت الكتاب.

وضعت الكتاب في الدولاب وأغلقته بالمفتاح الفضي.وضعت المفتاح في الحقيبة. أغلقت الحقيبة ووضعت مفتاحها النحاسي في العلبة. أغلقت العلبة ووضعت مفتاحها الصغير تحت طرف الحصير.

خرجت وأغلقت الباب ورائي ثم صعدت لأنتظر أبي في غرفة الأكل.

وفي فجر الغد، كانت عيني على موعد مع ثقب مفتاح باب الغرفة السفلية لأرقب طقوس أبي التي لم تعد ملغزة قط. فمن الآن فصاعدا، عوض ان أركز اهتمامي على الكتاب بين يدي أبي ، سوف أركز على تفاعل أبي مع الكتاب بين يديه.

لكن طقس أبي، هذه المرة، كان مختلفا. فعوض أن يركز هو اهتمامه على قراءة الكتاب، كان يركز اهتمامه على قراءة بصمات الأصابع الصغيرة على سطحي العلبة والحقيبة المغبرتين ويتمعن في الرجلين الحافيتين المختومتين جيئة وذهابا في اتجاه المفتاح تحت طرف الحصير... وانتبهت إلى عينيه فوجدتهما مركزتين علي، خلف ثقب المفتاح !

ربما غفا؟ !

لكنه يرمش باهتمام.

هل هو يراني؟ !

التفت حوالي وتأكدت أنني في الظلام. وعدت لأغرس عيني في ثقب المفتاح لكن الباب انفتح في وجهي ووجدت نفسي راكعا أمام أبي وهو يقاوم ابتسامة ماكرة:

- لقد أقلقتك يا ولدي بكثرة الضجيج !

ارتجلت جوابا قبل أن تشل المفاجأة لساني:

- نعم، يا أبي. ولذلك نزلت لأتحرى السبب.

ربت أبي على قفاي بكفه:

- حسنا، يا ولدي. تفضل وقم بتحرياتك على مهل.

ثم انصرف صاعدا السلم درجة تلو الأخرى.

11 أغسطس 2003

مدينة الحجاج بن يوسف الثقفي

" ليس ثمة أحد كرم لما يتلقاه. التكريم كان وسيبقى للذي يعطي."

كالفين كوديلج
Calvin Coolidge

" مدينة الحجاج بن يوسف الثقفي ترحب بكم"...

هذه هي أول عبارة تقابلك قبل ست كيلو مترات من دخولك المدينة على متن سيارتك. ثم تتوالى الشعارات على السبورات الحديدية على جانبي الطريق:

"من أجل مدينة حجاج بدون دور صفيح في أفق 2999"،
" من أجل مدينة حجاج بدون رشاوي في افق 2999"،
" من أجل مدينة حجاج بدون بطالة في افق..."،
" من أجل مدينة حجاج بدون سجون في..."،
" من أجل مدينة حجاج بدون ..."
" من أجل حجاج ..."
" من أجل..."
" ..."

وصلت، أخيرا، إلى مركز المدينة بعد قراءة كل الشعارات المؤدية إليه. نزلت من السيارة لأتمشى قليلا ريثما يحل وقت الندوة التي جئت لحضور أشغالها. مشيت مع "بوليفار" الحجاج بن يوسف الثقفي حتى إذا وصلت سينما الحجاج بن يوسف الثقفي توقفت طويلا عند أفيشات الأسبوع المقبل المزمع عرضها داخل القاعة" أفلام تاريخية عن إسهامات الحجاج بن يوسف الثقفي في توسيع رقعة بلاد الإسلام.

دسست يدي في جيب بنطلوني لأتجول على مهل في شوارع مدينة أستكتشفها لأول مرة. ثم واصلت السير بين وكالات تأمين الحجاج بن يوسف الثقفي وصالونات حلاقة الحجاج بن يوسف الثقفي ومقاهي الحجاج بن يوسف الثقفي واستوديوهات تصوير الحجاج بن يوسف الثقفي ومحلبات الحجاج بن يوسف الثقفي وملبنات الحجاج بن يوسف الثقفي ومصبنات الحجاج بن يوسف الثقفي وحانات الحجاج بن يوسف الثقفي وفنادق الحجاج بن يوسف الثقفي ومخابز الحجاج بن يوسف الثقفي ومرائب الحجاج بن يوسف الثقفي وبقالة الحجاج بن يوسف الثقفي ومساجد الحجاج بن يوسف الثقفي... حتى خلصت إلى الساحة الكبرى: ساحة الحجاج بن يوسف الثقفي وتتوسطها نافورة عاجية رائعة التصميم، نافورة الحجاج بن يوسف الثقفي. لكن ما أثار انتباهي هو خلاء المكان من المارة إلا من أفيشات ملصقة على جدران المباني المجاورة.اقتربت منها لقراءتها:

" تنظم جمعية الحجاج بن يوسف الثقافي للتنمية والعدل والتربية والثقافة والإعلام والتواصل والرياضة وحقوق الطفل والمرأة والأقليات ندوة تحت عنوان: ***"الصورة المضيئة للحجاج بن يوسف الثقفي، العادل المستبد"*.**

اقتحمت باب الندوة على آخر عبارة لآخر متدخل في الندوة:

"رحم الله الحجاج، ما أعدله!"

وتعالت موجة عالية من التصفيق الحار الحقيقي لأيدي حمراء من فرط الجهد وعيون دامعة تعبر بصدق عن أدمغة لم تقرأ ولم تر ولم تسمع في يوم من الأيام بغير الحجاج بن يوسف الثقفي.

15 يوليوز 2005

فخامة السيد الرئيس الحبيب الحي ديما

"ليس هناك إنسان، في تاريخنا البشري، عاش حياة بدخ ورخاء استحق اسمه التذكر والتذكار."

تيودور روزفلت

Theodore Roosevelt

" حاز ليلة أمس الأستاذ سيف الدولة الحبيب الحي ديما على الجائزة الكبرى لفخامة السيد الرئيس الحبيب الحي ديما لهذه السنة في حفل بهيج حضره معالي السيد الوزير معاوية الحبيب الحي ديما وحضرة السفير نظام الملك الحبيب الحي ديما والناطق الرسمي باسم البلاد السيد عبد الملك الحبيب الحي ديما.

وقد نال الأستاذ سيف الدولة الحبيب الحي ديما جائزته تحت تصفيق عاصف من إعجاب عموم الجمهور وكبار رموز الدولة وهو ما أثر نفسيا على الأستاذ الحائز على الجائزة الكبرى خلال إلقائه كلمته بشأن اختياره لنيل الجائزة من خلال بحثه الرائد المعنون ***" التبرك باسم فخامة رئيس البلاد ضرورة لتنمية الاقتصاد وتوحيد وجهات العباد "*** قبل أن يجهش بالبكاء ويرفع يديه متضرعا لله أن يحمي فخامة السيد الرئيس الحبيب الحي ديما من كل مكروه يترصده ويترصد البلاد."

وضع الزبون الأجنبي الصحيفة المحلية المكتوبة بلغته الأم على مائدته. رشف رشفة سريعة من كوب قهوته. نادى على النادل. وضع في يده بضع دريهمات ثم انصرف تاركا النادل وراءه يسمع للمتبقين من الرواد ممن لا يدفع له البقشيش كرم الأجانب وشح ذوي القربى.

عند منعطف الشارع، رفع الرجل الأجنبي يده لسؤال أحد المارة من أبناء المدينة:

- من فضلك، أين يمكنني أن أجد مؤسسة فخامة السيد الرئيس الحبيب الحي ديما للثقافة ؟

توقف الشاب . حك صدغه بسبابته. تذكر، أخيرا، قن المسار ثم :

ـ واصل سيرك على هذا الشارع، "شارع السلطان عبد الملك "، ثم انعطف يسارا على " شارع نظام الملك"، بعد مئتي متر. ثم در يمينا على **" شارع الخليفة معاوية "**، ثم يسارا على **" شارع سيف الدولة "**، ثم يمينا على **" شارع الملوك الثلاث "**، ثم يسارا على **" شارع الوزير جعفر البرمكي"**، ثم يمينا على **" شارع الوالي عمرو بن العاص"**، ... ثم يسارا على... ثم يمينا على...

قاطعه الأجنبي وقد اختلط عليه الحابل بالنابل ونسي كل الاتجاهات وضاع في سيل أسماء الأباطرة والسلاطين والأمراء والرؤساء والزعماء والقواد والولاة ومحترفي السياسة والتسيير:

ـ اعذرني، لقد تعطلت ذاكرتي بسبب كثرة الأسماء والشوارع ...

ـ ليس في الأمر مشكلة. مدينتنا مترامية الأطراف وشوارعها كثر ...

ـ أليس في بلادكم علماء ومفكرين وفنانين ورياضيين عظماء ؟

لم يفهم ابن البلد دلالة السؤال، فأجاب عن السؤال بسؤال مواز :

ـ لماذا ؟!

تأمله الأجنبي برهة ثم أضاف لمنظومة الأسئلة قطعة استفهامية جديدة :

ـ هل لديك إخوان أو أبناء أو أقارب ؟...

ـ نعم.

ـ ما هي أسماؤهم ؟

- عبد الملك، معاوية، سيف الدولة، نظام الملك...
اندهش الأجنبي :
- حتى في أحلامكم وداخل قرارة نفوسكم وفي أعماق بيوتكم ؟!...
انتبه ابن البلد أن الأجنبي مشبوه فيه وأنه مدسوس وأنه عميل استخباراتي يحاول التجسس عليه وأنه لا نية له في معرفة شارع أو ساحة... فعلت الصفرة وجهه وبدأ الارتعاش يساوم أوصاله فوثب وثبة كاد يسقط عقبها ثم انطلق هاربا من أسئلة الأجنبي فبدت جريته هجينة رخوة توحي للناظر بثقل الأسماء الكبرى على هيكل الأجساد المنهكة في سعيها نحو طوق النجاة.

2005/07/14

تنمية

" من يأخذ نفسه دائما مأخذ الجد يغامر دوما بأن يصبح مثيرا للسخرية. لكن من يسخر من نفسه باستمرار يتجنب ذلك المصير."

فاكلاف هافل
Vaclav Havel

الشعارات من قلب التظاهرة :

- القمع لا يرهبـنا	۞	والقتل لا يفنـينا
- وشرعية مطالبـنا	۞	تذكي النضـال فينا
- لا تعبير، لا تشغيل	۞	لا تربية لا تنمية

البـوق:

"أيها المتظاهرون ! هذا تجمهر غير مشروع وفعل غير مرخص له وإخلال بالأمن العام. ولذلك أمامكم دقيقتان للانسحاب في هدوء وإلا ستتدخل قوات الأمن لتفريقكم بالقوة ...

أيها المتظاهرون ! هذا تجمهر غير مشروع وفعل غير مرخص له وإخلال بالأمن العام، لذلك أمامكم دقيقتان للانسحاب في هدوء وإلا ستتدخل قوات الأمن لتفريقكم بالقوة ...

أيها المتظاهرون ! هذا... ولذلك... وإلا..."

الحوامات تمطر مناشيرا:

- أنظر إلى السماء !
- لماذا كل هذه الحوامات ؟!
- سيقصفوننا !
- لا، هم فقط يصوروننا !
- لكن أنظر: هم يلقون بآلاف الأوراق في الجو!
- أوراق مالية ؟
- لا، حجمها أكبر على ما يبدو...
- مناشير؟
- ولكن نحن من يجب عليه توزيع المناشير وليس الحوامات...
- ها هو المنشور الأول .
- أوه، هو بيان ! ...

قراءة البيان:

أيها الشعب الأبي! أيتها الجماهير الحرة! أيها النشامى ! الوطن يناديكم ويشد على أياديكم ويزف لكم هذه البشرى: التنمية لهذه السنة ارتفعت بنسبة مئة بالمئة وذلك بسبب انفتاح أسواق جديدة في كل ربوع العالم وارتفاع الطلب على منتوجاتنا

من بائعات الهوى ونبتة السعادة... وهذا سيؤثر إيجابا على سوق العمل الداخلي ليستوعب كل النشيطين. أما غير النشيطين فسيتلقون تعويضا يوميا عن العطالة: مومس واحدة وربطة واحدة من نبتة السعادة.

أيها النشامى، طوبى لكم والمجد والخلود للوطن...

الذهول:

- ..!
- ..!
- ...!

24 يوليوز 2005

إخراج تافه لمشهد تافه

" أصعب عملية حسابية هي التي تمكننا من عد حسناتنا"

إريك هوفر
Eric Hoffer

اللافتات على الشوارع:
تقيم جمعية " **الخلود**" للتربية والثقافة والفنون والعلوم والتكنولوجيا والرياضة والبيئة والطفولة والعمل النسوي محاضرة تحت عنوان: **" حرية التعبير: الكائن والممكن"**، يلقيها أستاذ الأجيال أبجد هوزحطي بعد غروب الشمس على المركب الثقافي خلف قصر البلدية بالمدينة.

كواليس العرض:
" انتبهوا، أيها الإخوة المناضلون. نحن نعمل والأعين تترصدنا والآذان تعد لنا دقات قلوبنا وزفير رئاتنا.إننا نعمل تحت تهديد الكثير من الأخطار الخارجية التي تفرض علينا التأهب والاحتراس. جمعيتنا قشة في محيط من الأخطار. وإذا ما وعينا بذلك تغلبنا على الصعاب واستحقنا الانتماء لهذه الجمعية واستطعنا إعطاء المثال. يجب أولا أن نتعرف على مكان النشاط ونضع تصورا لشكل العرض: مكان الضيوف المؤطرين ومكان الجمهور. أجلسوا الضيوف الذين يمكن أن يغنوا النقاش إيجابيا في الصفوف الأولى، وراءهم الحسناوات ثم باقي النساء وفي الخلف باقي الذكور كبارا وصغارا. أما نحن فسنتوزع على لجان. أنتم لجنة توزيع الحضور على المقاعد. وأنتم لجان " اليقظة ": مراقبة الأبواق، الإنارة، كتابة المقترحات على الأوراق، والأهم من كل ذلك تحديد لائحة المتدخلين فلا تسمحوا إلا للمتدخل الذي تختارونه أو الذي تعرفون سلفا أن خطاب الجمعية سيمرر من خلاله وعلى لسانه. أما أنتم فستكونون لجان "المداخلات" وملء الفراغ الذي ستتركه كلمة الضيف المحاضر: أنت المتدخل رقم واحد، وأنت المتدخل رقم اثنان، وأنت المتدخل رقم ثلاثة وأنت المتدخل رقم أربع... أهم ما يمكن أن تركزوا عليه هو عامل الوقت: خذ راحتك وأنت تأخذ الكلمة واثن بالمديح على جمعيتك ومشروعها وفعالية أعضائها وباختياراتها الرصينة... حتى إذا ما انتهيت أكمل رفيقك الثناء واقتنع الجمهور بتكرارية المداخلات وقطعنا على الأشرار كل نواياهم الشريرة في تعكير الجو الاحتفالي علينا...

دخول المدعوين (وصف صحفي):
...
...
...

بداية العرض:
...
...
...

كلمة أبجد هوزحطي :

...
...
....

لائحة المداخلات :

∗المداخلة الأولى:
في. البداية. أود. أن. أشد. بحرارة. على. يد. جمعيتنا. العتيدة. على. مجهوداتها. الجبارة. فداء.للمصداقية. و. الإشعاع. و. التنوير. تحت. قيادة.السيد. رئيس. الجمعية. أطال. الله. في. عمره. و. أدام. على. الجمعية. سديد. أفكاره. و. لا. يفوتني. أن. أهنيء.الجمهور. الكريم. على. هذا. العرض.التاريخي. الذي. س. يتذكرونه. ما. داموا. على. قيد. الحياة. وشكرا.
∗المداخلة الثانية:
تحية للأستاذ أبجد هوزحطي الذي تفضل مشكورا بهذا العرض الشيق والرصين، في آن، عن حرية التعبير. وأنا لما أقول الشيق والرصين فأنا لا أقصد اللعب على الألفاظ والجمع بين المتضادات بقدر ما أقصد قدرة الأستاذ المحاضر على الإحاطة بكامل جوانب الموضوع. بمعنى آخر ،شمولية الرؤية للموضوع. وأنا لما أقول شمولية الرؤية للموضوع فأنا لا اقصد استعارة معاجم الفاشية والأنظمة الشمولية بقدر ما أقصد الرؤية المتعالية عن كل إيديولوجيا أو تحيز مسبق. بمعنى آخر الحقيقة. وأنا لما أقول الحقيقة، فأنا لا أقصد ... بقدر ما أقصد ... بمعنى آخر... وانا لما أقول... فأنا لا... بقدر ما... بمعنى آخر...

∗المداخلة الثالثة:
قبل كل شيء، أود في البداية، أن أقول، بكل ثقة في النفس، أنه ، حسب رأيي المتواضع، وأنا لا أدعي علما، أنه، فضلا عما سبق التطرق إليه والتفصيل فيه في هذه المحاضرة القيمة الغنية والمفيدة ،يمكن كذلك القول والجزم، مع قليل أو كثير من التحفظ، وليس في ذلك حرج ، أنه كان بالإمكان، وهناك دائما إمكانيات، إضافة أشياء أخرى، وشكرا.
∗المداخلة الرابعة:
من حيث المبدأ، ليس هناك أبدع مما قيل. خاصة وأنه كان يجب كذلك دونما من حيث هو فضلا عن ذلك ولعل ما أو ربما صار وشكرا.
∗المداخلة الخامسة: (غير مبرمجة)
...
...
...

تلاسن بين رئيس الجلسة والمتدخل الخامس:
الرئيس – شكرا للأخ المتدخل، كلمتك وصلت.
المتدخل - عذرا، سيدي، أنا لم أكمل كلمتي بعد.
الرئيس - ألا زال في حوزتك ما تقول ؟
المتدخل – نعم، هذه فقط توطئة.
الرئيس – توطئتك وصلت ونشكرك على المشاركة.
المتدخل – يا سيدي، لا تقاطعني فضلا.
الرئيس- أنا لا أقاطعك، أنا أوقفك. انتهت مداخلتك.
المتدخل – أنا أتمسك بحقي في إتمام كلمتي والاستفادة من نفس المدة الزمنية التي تمتع بها المتدخلون قبلي.
الرئيس - انزعوا عنه الميكروفون! من أعطاك الحق لتقحم اسمك في اللائحة ؟!
المتدخل – حضوري يعطيني كامل حقوقي لممارسة النقد وإسماع صوتي ولهذا نحن جميعا هنا.
الرئيس – انزعوا الميكروفون من يده!

تعقيب الأستاذ المحاضر الدكتور أبجد هوز:

...

...

التقرير الصحفي لمجريات النشاط الثقافي:

...

...

...

ملتمس السيد رئيس الجلسة:

نرجو من مراسلي الصحف الحاضرين معنا في هده الأمسية عدم جعل الملاسنة مع المتدخل الأخير موضوعا يجعل القراء الذين لم يعاينوا هذا النشاط الناجح يعتقدون، عند قراءة التغطية على صفحات الجرائد، أنه كان مجرد مشاحنات ومهاترات بين الحضور والمنظمين.

التقارير الصحفية لمجريات النشاط ، معدلة:

...

...

...

الكلمة الختامية للسيد رئيس الجلسة:

أيتها السيدات، أيها السادة. نهنئكم على هذا النجاح الباهر، على هذا الانضباط المسؤول. وعلى أمل اللقاء القريب في نشاط قريب قادم أكثر إشراقا وإشعاعا، لنتفرق بنفس الهدوء الذي فطرنا عليه جميعا وبنفس الانضباط الذي نعطي به المثال الصارخ لكل العالم. لنتفرق بوعي ومسؤولية ولنستحضر مع كل خطوة نخطوها نحو بيوتنا هذا النجاح الباهر، هذا المكسب الأصيل الذي يجب أن نحافظ عليه، وأن نردد في قرارة أنفسنا، ونحن نخطو نحو بيوتنا، هذه الحكمة البليغة:

" وراء كل فعل ناجح انضباط وهدوء".

29 مارس 2004

شيخوخة

" كل إنسان يحمل داخله خبرا سارا. الخبر السار هو أنك لا تعرف قدر عظمتك! ولا حجم ذخيرتك من الحب! ولا ما يمكنك إنجازه! ولا تعرف حتى إمكانياتك!"

أنليز ماري فرانك
Anneliese Marie Frank

في صالون الحلاقة :
- خفف لي أكثر !
- لا يمكن ! ستبدو أقل جمالا لأنك فقدت الكثير من الشعر على جانبي رأسك وفي الأعلى...
- هل لديك فكرة عن تساقط الشعر؟
- الفكرة التي تدور في دماغي الآن هي أنك شخت !
- وكيف تعرف الشيخوخة، أنت الحلاق ؟
- بالشيب الذي بدأ يشتعل في شعرك وبهذا الزغب الغزير المطل من أذنيك!

في محل الفيديو – كلوب:
- من فضلك، فيلم ل" شيشكابور"!
- تفضل، شاهد لقطة من لقطات الفيلم لتقف على جودة التسجيل على الشريط.
- ولكن هل صار "شيشكابور" يمثل دور الجد؟!
- هنا يمكنك أن تعرف كيف تقدم بك الزمن!
- وكيف تعرف أنني شخت وأنت لا تعرفني. بل إنك لم ترني في يوم من الأيام؟ !
- الأمر لا يتعلق بضرورة الإطلاع على وثائق الهوية أو على المعرفة الشخصية بالفرد.لا. مطلقا، لا. إن إعجابك بممثلين تحولوا من أداء أدوار الشباب إلى أداء أدوار الشيوخ حيث يجدون أنفسهم لهو الدليل القاطع على أنك شخت معهم!!!

في نادي الموظفين:
- هذا يحتاج إلى وقت وإلى عزيمة... وأنا لا أستطيع توفيره الآن.
- نعم، خاصة حين يشيخ المرء.
- وكيف عرفت أنني شخت؟!
- بهذا البطن المترهل المتدلي فوق حزامك الجلدي!...

في الشارع الرئيسي:
- أهلا ب....!
- هل نسيت اسمي، أنا أعز أصدقائك في الجامعة؟!
- أمهلني قليلا... اسمك على طرف لساني...
- وهنا يمكنك أن تعرف أن الزمن مر بسرعة وأنك شخت!...

- هل مجرد نسيان اسم دليل يحيل على الشيخوخة ؟!

- الساعة الصغيرة على معصمك تعد الدقائق والساعات بالعقارب. أما الساعات الكبرى والزمن الكبير فلا يشغل عقاربه لعد الدقائق والساعات بل يشغلها لمحو الذكريات والصور والأسماء. وكلما تقدم المرء في السن، كلما ضاعت ذاكرته ورموزه تحت المحو الصامت لعقارب الزمن...

حوار مع أحد الغرباء عن المدينة:

- لمذا يصر الناس هنا على شيخوختي؟
- لأنهم جميعا شيوخ.
- لكنهم مهووسون بالشيخوخة !
- لأنهم لا يرون شبابا.
- أليس لديهم شبانا وشابات؟!
- الشبان هنا يهاجرون. فمنذ بلوغهم سن الرشد الأول يبدؤون العد العكسي لبلوغ سن الرشد الثاني، السن القانوني للهجرة.
- وإلى أين يهاجرون؟
- إلى حيث الشباب دائم لا يبلى.

7 أبريل 2005

جون جونيه: بين البحر والسجن والمقبرة

"حين تهدي أحدا كتابا، فإنك لا تهديه فقط ورقا ومدادا وغراء. إنك تهديه إمكانية عيش حياة جديدة."

كريستوفر مورليه
Christopher Morley

اسودت السماء وازداد سوادها قتامة بنزول السحب الحبلى حتى مستوى الأشجار الحائرة تحت هياج الرياح. الكون يتمزق ضياء بين الفينة والفينة والرعد يزمجر في كل مكان. والظلام يحتوي الوجود رويدا رويدا.

رونيه، ضيفي الفرنسي، غير محظوظ. رونيه حل ضيفا علي لمساعدته في إنجاز بحثه المعنون: **"جون جونيه : بين البحر والسجن والمقبرة "**، وهو أطروحة لنيل الدكتوراة لكنه يعتزم من خلاله دخول عالم الكتابة والطبع والنشر. وقد وعدني بتخليدي على صفحة الإهداء حين يصدر البحث كتابا.

إقامته معي ستدوم أسبوعا. لكن تخمينات النشرة الجوية للأسبوع الحالي تتوقع تساقطات مطرية كبيرة وانخفاضا كبيرا في درجة الحرارة وهو ما سيحصر إقامته معي في مقهى على الشرفة الأطلنتيكية، قبالة البحر، أو في إحدى غرف بيتي في **"كريان جنان باشا".**

جون جونيه، بين كل مدن الدنيا، كان يبحث عن مدينة تجمع محطات حياته الثلاث في مثلث متساوي الأضلاع : **السجن** حيث قضى سبع سنوات من حياته، **والبحر** متنفس الصدور بعد كل ضيق، **والمقبرة** غرفة النوم الأبدي لكل المتعبين...

بين كل مدن الدنيا، لم يجد **جون جونيه** سكنا يطل مباشرة على مثلثه الوجودي إلا في هذه المدينة. ولهذا اشترى ذلك المنزل هناك حيث كان يقضي معظم وقته تحت قبعته متأرجحا، طول الوقت، على كرسيه الهزاز يرقب من الشرفة زوايا المثلث متنقلا بنظره من المقبرة حيث أوصى بدفنه، إلى السجن على اليمين، إلى البحر الممتد إلى مالا نهاية له ثم إلى المقبرة ثانية وثالثة ورابعة...

كان ضيفي، **رونيه،** يدون كل ما أتلفظ به. وكانت أساريره منفرجة وكان سعيدا رغم الجو الكئيب ورغم سواد المظلة المشتركة الذي كان يحتمل أن يجعل إحساسنا بالكآبة والسواد مضاعفا.

المطر يهطل بغزارة وهدير البحر يملأ الكون صخبا ولا مجال للتجول في الشوارع والطرقات ...

دعوته للذهاب للاحتماء ببيتي فاستجاب .

هذا هو حيي: **" كاريان اجنان باشا "**، بعيدا عن مثلث جونيه ، لكن **رونيه،** ضيفي، لم يكن سعيدا أو ربما فترت سعادته أو ربما هو متعب.

نزلنا "**الكاريان**" في مسالك ملتوية ضيقة كما ننـزل حافة نهر وادي المخازن... كان رونيه صامتا يتبعني من الخلف يخطو حيثما خطوت ويتوقف حيثما توقفت للاحتماء من نوبة مطرية عاصفة...

تفضل! مرحبا !هذا هو بيتي...

رفع **رونيه** عينيه إلى الجهة التي نزلنا منها حيث العمارات الشاهقة وفنون المعمار والبناء والتعمير، واستدار بنظره من اليمين إلى اليسار فبدا له حيي مثل مجمر وقوده الناس والبراريك والأزبال. وبدأ الخجل يخامرني...

فتحت الباب وأضأت المكان.

سألني **رونيه** متعجبا:
- هل لديكم كهرباء؟
- طبعا. هنا، يمكنك أن تسكن في أي "**كاريان**"وسيأتيك الماء والكهرباء وكل الحقوق حتى باب بيتك.

جدران الغرفة ازدادت برودة عما كان عليه الحال صباحا.

الجدران انتفخت وطفت عليها خضرة خفيفة. الصور الكبيرة الملونة المعلقة باللصاق المائي قد انفصلت زواياها عن الحائط فقد تحولت من بورتريهات إلى منحوتات بفعل رطوبة المكان المبدع...

أدركت أن ضيفي مستاء للغاية من جو الضيافة. لم يعد يسأل عن **جون جونيه**. هو فقط يحملق في شكل المكان ويحاول تسمية مرافقه. قال سهوا وهو يتحسس الصدأ الذي علا شباك النافذة الوحيدة الصغيرة المطلة على الخارج:
- هل شاهدت فيلم " **الهاربون من اركاتراس** "؟

أجبت آليا:
- نعم. ولكن السجن سنخرج لرؤيته بعدما يصحو الجو. نحن رأينا فقط المقبرة والبحر ومنزل جون جونيه...

اندهش رونيه وجعد جبينه غير مصدق، قائلا:
- هل بعد كل هذا، لازالت هناك سجون وراء "**الكاريانات**" !؟

ازداد غضب المطر.

المطر، الآن، لا يهطل: المطر، الآن، يركل السقوف...

المطر، الآن، يبصق على زجاج النوافذ.

المطر، الآن، يمسح كل الأسماء على الألواح.

المطر، الآن، يمسح كل الشعارات على اللافتات.

المطر، الآن، يمسح كل شيء...

26 يوليوز 2005

الرجل الأرنب

" إذا ما عاملت إنسانا كما يبدو لك فستجعله أسوء مما كان عليه. وإذا عاملت إنسانا حسب الصورة التي يطمح هو أن يكونها، ستجعل منه ما يطمح هو إليه."

غوتـــه
Johann Wolfgang von Goethe

الأصدقاء يطلبون الكرة على الرأس وهم في معترك الخصم قبالة المرمى لكنني فضلت استعراض مهاراتي الفردية أمام مدافعين خشنين أرسلاني إلى الهواء بضربتي مقص فكان علي، وأنا في الهواء، أن أحدد جهة الأرضية التي سأسقط عليها وجهة جسمي التي سترتطم بها، ففضلت السقوط على ساقي و... تكسرت.

حملني اللاعبون، زملاء وخصوما، بالتناوب إلى أقرب طبيب للعظام.

الطبيب المحلف لدى المحاكم اشترط تسلم المال قبل إجراء العملية الجراحية على ساقي المكسورة ثم طردني في منتصف الليل بعيد العملية وأنا لا أزال تحت تأثير التخدير وأعطاني موعدا بعد شهر تام الكمال.

طيلة شهر كامل، لم تطأ قدماي حماما. النثونة تنبعث من جسدي على بعد أمتار طويلة من مكاني. صرت أخجل حتى من مجالسة أقاربي. أما في الكلية فصرت أكثر انطوائية وأضحيت أفضل الجلوس وحيدا في آخر المدرج تحت فعل الإحساس بالنتونة.

انتهت المهلة، أو الموعد. عدت ثانية إلى الطبيب المحلف لدى المحاكم كي يفسخ لي الجبس. لكن ساقي اليسرى ظهرت أقصر من الساق الثانية ثم إن ركبتي اليسرى لا تنثني!

سبقني الطبيب المحلف لدى المحاكم إلى الحل السحري:
- الآن، يمكنك الذهاب إلى الحمام. هناك، ستعود ركبتك للعمل...
- وساقي القصيرة ؟!
- إذهب أولا إلى الحمام. بعد ذلك سنرى مع قصر الساق...

ذهبت فرحا إلى الحمام ثم عدت إليه ثانية في اليوم الموالي ثم في اليوم الثالث ثم...

قضيت أسبوعا كاملا في التردد على الحمام العمومي حتى انتبه القيم عليه لمواظبتي اليومية على الاغتسال. وبدأت أسمعه يهمس في أذنه صاحبه:
- هذا أعرفه. هو غير متزوج. لكن لماذا كل هذا الاغتسال؟!!!

عدت إلى عيادة الطبيب المحلف لدى المحاكم. كان وحيدا في مكتبه منهمكا في حساب الفواتير حين أفزعته بسؤالي:
- لماذا عوجتني ؟
- أنا لم أعوجك. كل وحظه. العملية الجراحية دائما تسعة وتسعون في المئة نجاح، وواحد في المئة فشل...
- وماذا سأفعل الآن برجل واحدة في الأرض ورجل ثانية في الهواء؟!!
- المهم أنك تمتلك ساقين مثل كل الناس.. .
- سأقتلك، أيها الوغد !
- أغرب عن وجهي، أيها الصنديد!

ثم طاردني بساطور في يده اليمنى ومطرقة في يده اليسرى لكنني كنت أقفز كالأرنب هاربا من القصاص: أستقيم على الساق القصيرة ثم أدفع بنفسي في الهواء بالساق الطويلة فأجد نفسي قد قفزت تسع زليجات ثم تسع آخر ثم ... ثم... ثم...

لم أتوقف إلا وأنا بين رفقائي في الحرم الجامعي ففاجأتهم:
- أنتم شهودي ...
- على ماذا ؟
- الطبيب مسخني وسأحضر لمقاضاته وإلا سأقتله أو يقتلني...
- حذار أن تدخل في خصام مع الطبيب. هو يعرف كل الأدوية وكل السموم. ثم إن الموت بالنسبة له هي حالة عادية. الموت الذي نخافه هو عنده مجرد حالة. والموتى الذين نجلهم هو يقضي يومه يتعثر في جثثهم. إذا دخلت في عداوة معه،فقد يحقنك بحقنة واحدة فيحنطك مثل أفعى أو تمساح...

لم أفهم.
هل سيخذلني أصدقائي؟!...
سمعت أحدهم يردد وهم ينصرفون،جميعا، بعيدا عني:
- هذا قدر الله! ...

أحسست بالعالم يتغير أمامي...
عواطفي تتغير داخلي...
إدراكي يتغير، رؤاي، قناعاتي، تربيتي، آمالي...

هل خذلني أصدقائي؟... ووجدتني أهمس لنفسي:
كيف؟ !
هل ضعت في ساقي؟ !
هل سأتعلم حياة جديدة؟ !
هل أقبل بحياة الأرانب ؟ !...

الدوار ينتابني:
- هل صار لزاما علي أن أقبل بدور جديد في حياة جديدة كأرنب؟
الدوامة تتملك الكون أمام عيني:
- هل أصبحت أرنبا؟ !

ثم وجدت نفسي أصيح بحرقة من يغرق في دوامة من الوحل ويرى نهايته ويحسها:
- تعالوا، أيها الأصدقاء !
لكن الأصدقاء واصلوا ابتعادهم كلما واصلت التوسل:
- اجيبوني ثم انصرفوا إن شئتم: هل سأحيى بقية حياتي هكذا ؟
لكن الأمر لم يكن يهم أحدا غيري:
- أجيبوني من فضلكم. أيها الأصدقاء، إلى أين أنتم ذاهبون ؟ هل تتركوني أنتم أيضا؟...

لكنهم استمروا مبتعدين، صامتين .

نظرت إلى الأرض تحتي ووجدتني أقف على رجل واحدة والأخرى تتأرجح في الهواء. رددت سؤالي بصوت أضعف والدمع المطل من مقلتي يقعر الكون ويحدبه:

- هل توصوني بالحياة هكذا ؟

التفت إلي أحدهم، للمرة الأخيرة، قبل أن ينعطفوا جميعا خلف زاوية المقصف:

- "اشتر حذاء بكعب عال ووفر على نفسك كل العواقب غير المحسوبة!"...

انتبهت لنفسي وقد بقيت وحيدا وسط الحرم. الأساتذة من نوافذ كل الطوابق،على اليمين، يلغطون.هدير السيارات ونفير الشاحنات خارج الحرم، على اليسار، يصيبني بالدوار وأشرع في التفكير في تحويل اتجاهي إلى ما وراء اليمين واليسار، إلى الأعلى: فعوض أن أقفز كأرنب إلى الأمام سأقفز كصاروخ إلى الأعلى:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ۞ لآت بما لم تستطعه الأوائل

2005/07/28

كلاب

" لا تدع النقد يعكر صفو تفكيرك. وتذكر أن المذاق الوحيد
للنجاح عند بعض الناس هو طعم تلك العضة التي ينالونها منك."

زيغ زيغلر

ليس لديه ما يسرق: لا أثاث ولا أواني ولا أطفال ولا امرأة... ليس له غير لباسه. ومع ذلك فهو يغدق الخبز على كلاب ضالة لتحرس له باب بيته المتداعي في هذا الحي من طوق الفقر الصفيحي حول المدينة. كلاب جوعى مثل هذه لا يمكنها حراسة أحد أو حمايته من المعتدين ولكنها قد تدرك أن عليها رد الجميل لمن يفتت لها الخبز كل صباح بنبحة أو نبحتين ليلا إذا ما حاول متطفل أو معتد الاقتراب من الباب...

الصباح ضبابي وقارس البرودة. يخرج الرجل من بيته، يجلس على العتبة. تقترب منه الكلاب في فئات متباينة، اثنان يقتربان منه أكثر يلحسان يديه وحذائه، والخمسة الباقون يقفون بعيدا...

البرد قارس. الرجل والكلبان ينفثان دخانهما على بعضهما البعض، يتبادلون الأنفاس.

انسحب الرجل إلى داخل البيت ثم عاد بحجر قميصه مملوء خبزا يابسة طغى على الجزء الأكبر من سطحها صوف أخضر نتن. شرع يفتتها للكلبين اللذين يصفقان بذيلهما فرحا ويلهثان من انفتاح الشهية ويلتفتان بين الفينة والأخرى للتأكد من احترام باقي الكلاب الخمسة للمسافة الفاصلة بينهما...

ينتهي الرجل من تفتيت الخبز للكلاب، يمرر يديه على عنقيهما رضا واستحسانا، يغلق باب البيت ثم ينصرف مبتعدا عن طوق الفقر باتجاه مركز المدينة طلبا ل " طرف الخبز".

الكلبان، الآن، يفترسان فتات الخبز على الأرض في شخير مبالغ فيه لتنبيه الكلاب الخمسة في الخلفية القريبة وردعهم عن كل تفكير في الاقتراب والمضايقة.

تفهم الكلاب الرسالة : ترقد على الأرض تتفرج وتنتظر. الكلبان يأكلان الخبز المفتت بشراهة ويشخران بجنون ويلتفتان كل دقيقة صوب الكلاب الخمسة الهزيلة ليجددان التحذير بمنع الاقتراب منهما.

الكلب الذكر يريد الانصراف لكنه يفكر في مصير الخبز. ينظر إلى الكلاب الراقدة قربه وقد اصطنعت لامبالاة زائفة ثم ينظر إلى الخبز المتبقى على الأرض. يتروى قليلا ثم ينحني، يأكل مع الكلبة الأنثى بتأن. يرفع رأسه ليبتلع ما بين فكيه. يبتلع الخبز بصعوبة ظاهرة من خلال حركات عينيه الجاحظتين من فرط التكلف. ينظر إلى الكلاب الخمسة وراءه. يكشر عن أنيابه. يزمجر. الكلاب أوفياء لدور "**اللامبالي**" الذي رسموه لأنفسهم: مستلقون على بطونهم، يتنفسون بهدوء وهم يرمشون...

يعود الكلب للأكل. القطعة الأخيرة من الخبز استعصت على الهضم. لكنه واصل المحاولة تلو المحاولة حتى انهار أرضا وبدأ يسعل ويشخر ويركل الأرض حوله في محاولة لدفع قطعة الخبز اليابس الذي تخنقه إلى داخل معدته. يسعل ويشخر ويركل ويدور على الأرض كعقارب ساعة مجنونة. يركل ويدور، يركل ويدور. الأرض تحته صارت أنظف تحت النفخ والسعال والشخير والركل والتمرغ.

في الخلفية القريبة، الكلاب الخمسة، دائما راقدون في إقليمهم الآمن غير آبهين بالكلب المحتضر، يتفرجون فقط على الكلبة الأنثى وهي تأكل وتزمجر وتلتفت إليهم بين الفينة والاخرى غير واثقة من لامبالاتهم.

يطالها التعب والتخمة. تستريح أمام الخبز التي يركلها قربها الكلب المحتضر. تشم القطع المتبقية قطعة قطعة. تقف ثم تجمع منها ما استطاعت جمعه بين فكيها. تلتفت إلى الكلاب الخمسة: الكلاب في أماكنها تنظر وترمش بلا اكتراث متقن. تزمجر زمجرة تحول دون قوتها كثرة الخبز بين فكيها. الذباب يفترسها. تحاول نفض أذنيها فتسقط الخبز من فكيها. تنحني

لجمعها كلها في فمها، تجمعها، تبتعد متباطئة تحت ثقل الخبز في أمعائها وبين فكيها. تبتعد ملتفتة بين الفينة والأخرى صوب باقي الكلاب وباقي قطع الخبز المفتتة على الأرض. تنعطف ويغيب أثرها لبرهة من الزمن.

تقف الكلاب الخمسة، فجأة. يتروون في وقوفهم. يتقدمون بحذر بالغ نحو قطع الخبز قرب جثة الكلب الميت. ينظرون وراءهم إلى المنعطف حيث اختفت الكلبة. ينقضون على الفتات. يفترسونه وهم يلتفتون دوريا إلى الوراء درء للمفاجأة والعقاب. يفترسون الفتات بأضراسهم ويروحون عن خوفهم بأذيالهم.

أخيرا، تظهر الكلبة مسرعة. ثدياها تتأجحان بين أرجلها وتلامسان نتوءات الأرض. ينتبه الكلاب الخمسة لحضورها. يثبون. يغادرون المكان. يفرون بجنون دون التفاتة إلى الخلف. تقترب الكلبة من مكان الخبز: لا شيء. تنظر إلى الكلاب المغيرة وقد صارت خمس نقط في البعيد لا زالت تركض وترسم في جريها مستقيمات متوازية ومتقاطعة ومتعامدة ولكنها لا تتوقف عن الجري بعد امتلاء مختلس ونجاة صعبة من أنياب كلاب تؤثر الموت من التخمة على اقتسام الفتات.

أمطراس (شفشاون)، سنة 1995

يا ذاك الإنسان!

" الله، الله، الله! يا ذاك الإنسان ۞ على زيــن فيك!
الهمة والشان، النخوة والابتهال ۞ اشحال مواتيــك!
وعلي، الله يهديـــــك ۞ يا ذاك الانســان! "

كلمات: الطيب العلج
ألحان: محمد العلوي
غناء: عبد الهادي بلخياط

1)- مع الإنسان (أغنية):

الزين والعــين الزرقـــاء ۞ جاءنا بكل خـــير
اليوم يمشــــوا بالفرقــة ۞ بناتنا في خــــير
أشحال من هي معشوقـــة ۞ داروا لها الشـــان
الامريكـــان
تسمع غير "**أوكي، أوكــي**۞" هذا ما كــــان
* * * *
في الكوتشي مع الطوبيــس ۞ ما لقيت نوبتـــي
يميــن وشــــمال ۞ ما تسواشي كلمــتي
حتى من الفيلو- طاكســي ۞ داروا لها الشـــان
الامريكـــان
تسمع غير "**أوكي، أوكي**" ۞ هذا ما كــــان
* * * *
فرقوا الفنيد، افليـــو ۞ زادوا اشوينكـــوم
حتى الغبرة والحمـــير ۞ زادوا البومــــبوم
حتى من العزيزات اليــوم ۞ يشربوا الـــروم
الامريكـــان
تسمع غير "**أوكي، أوكي**" ۞ "**كامــون**"، "**باي باي!**"
* * * *
فرقوا الفنيد والسيــجار ۞ زادوا الـــدولار
حتى مـن العجايــز ۞ اشراوا الفـــولار
حتى من هم صغـيرات ۞ يعقـدوا اللســان
الامريكـــان
تسمع غــير "**أوكي، أوكي**" ۞ "**كامـون**"، "**باي باي!**"
* * * *
قوى علينـا الكبنـــدي ۞ من الناس فارحيــن

سعد الزكا معهـــــم ۞ النساء رابحيـــن
اشحال من هي معـــشوقة ۞ ولات بالسيكار واللثام
مع الامريكـــــان
تسمع غير:" **أوكي، أوكي"** ۞ **"كيف مي الـدولار!"**

أغنية " **العين الزرقاء**"، 1945
كلمات ، احان وغناء الحسين السلاوي

2)- تحت الإنسان (خبر صحفي):

" ... ثمة احتمال أن يكون بعضهن قد خضع لعملية تخدير حتى تسهل على المخرج عملية "**إدارة الممثل**" أثناء التصوير، خصوصا أن بعض المشاهد تثبت "**سادية**" السائح الأجنبي والتي تظهر من خلال الطريقة **"العنيفة"** التي كان يمارس بها الجنس مع "**ضحاياه"**، إذ يظهر في إحدى هذه الصور وهو يتبول على إحدى خليلاته..."

تعليق السائح الأجنبي على الخبر الصحفي:

" ما أود أن أؤكد عليه أنني متهم في هذه القضية بعدة أشياء، لكنني لست متهما بتشويه سمعة المدينة، وأن هذه الأخيرة كانت كذلك قبل أن ألجها أنا وأن كل ما أضفته أنني فضحت هذه الممارسات التي تحدث في المنطقة.

3)- تحت الحيوان (خبر صحفي آخر):

" تم اعتقال مجموعة من الفتيات بتهمة الفساد، في حين ثم ترحيل بعض زبائنهن (...) إلى بلادهم (...) فللأمر علاقة باكتشاف فتيات (...) يحملن "**مرضا غريبا**" قيل إنه انتقل إليهن من خلال ممارسة الجنس مع كلاب يملكها سواح أجانب."

8 أغسطس 2005

الحياة بالأقدمية

"هناك حلول كثيرة لمشاكل جمة مقابل صعوبات لانهائية"

سيمون بوليفار
Simón Bolívar

منذ دخلت المدرسة في سن السابعة من العمر وأنا أدرس في كل فصل ثلاث سنوات أعاشر خلالها ثلاثة أجيال. وقد وسعت بهذه السياسة دائرة معارفي لتشمل كل أحياء المدينة. فقد صار لي أصدقاء في كل مكان كما صار لي أصدقاء من كل الأعمار.ولما وصلت قسم الشهادة الابتدائية بعد رحلة الشتاء والصيف التي دامت خمسة عشر عاما، كان لي أصدقاء في القسم الذي أدرس فيه وآخرون في الثانوية وغيرهم في الجامعة أو في مراكز تكوين المعلمين بعضهم اختار العمل معلما رسميا في مدرستي ويتعامل معي كصديق طفولة يتحسر عليها وأنا لازلت أعيشها....

لا أعتقد أن الأمر يتعلق بضعف مستوى المدرسين كما لا أعتقد أنني بليد أو كسول ولكنها الحكمة الآمنة التي فطمنا عليها جميعا ولم يعد يؤمن بها غيري وبعض الصفوة من طليعة رجال الغد: **" العجلة من الشيطان"**، ولذلك فقد تحملت، بمعية هذه الصفوة من التلاميذ، مهمة تعميم هذه الفلسفة على العالمين. ولكن قبل الخروج للناس، كان علينا أن نمارس التعاليم التي سنبشر بها الناس وأولها: **" ما فاز إلا النوم"**. فقد واصلنا النوم لمدة ثلاث سنوات في كل فصل حتى تغيرت المسطرة النظامية المسيرة للنجاح والرسوب فأصبح لا يسمح بلزوم فصل دراسي لأكثر من سنة واحدة لمن سبق له تكرار فصلين دراسيين.لكن المسطرة الجديدة، رغم شكلها الزجري، فقد كانت عاملا مساعدا لنا من أجل المبالغة في النوم بغية المبالغة في النجاح لأننا كنا نعلم علم اليقين أننا ناجحون كل سنة من السنوات القادمة **" أحب من أحب وكره من كره"**، كما كان يردد المكافحون والمجاهدون والمناضلون القدامى وكل من كان يؤمن بأنه يبذل جهدا....

المسطرة الجديدة ضمنت لنا النجاح طيلة مدة إقامتنا في الابتدائي والإعدادي لأن الإدارة لا تنوي طردنا وحرماننا من التمدرس قبل بلوغ سن الرشد. لكن في المرحلة الثانوية، تفاجأنا بالإيقاع الجديد ووجدنا أنفسنا غير محميين بقانون أو مسطرة تضمن لنا النجاح دون جهد. وبعد أربع سنوات، كان كل رفاقي خارج أسوار المدرسة وقد نيفوا على الثلاثين من العمر يبحثون عن مقعد في قسم الباكالوريا في ثانوية حرة بعدما استحال وصولهم إليها عبر قناة التعليم العمومي.

في الثانوية الحرة، وجدنا السند الذي فقدناه في السنين الخوالي. فلكي تصبح طالبا له الحق في الدراسة في صف الباكالوريا يكفي أن تكون كبيرا في السن وأن تدفع تسبيق الشهر الأول. لكن الفرحة الكبرى كانت خبر نجاحي في الدورة الأولى مع النوابغ من تلاميذ الإقليم. طبعا لم أكن الوحيد فكل رفاقي كانت أسماؤهم على سبورة الشرف ضمن الناجحين لأن إجاباتنا على اوراق الامتحان كانت واحدة. فكل وريقة كنت أتلقاها ممن كنت أستجديهم من نوابغ التلاميذ في القاعة، كنت أمررها للرفاق الذين يحفرون لي ظهري برؤوس أقلامهم بعصبية تزداد حدتها مع اقتراب عقارب الساعة الحائطية من موعد جمع الأوراق وغلق أبواب القاعات...

في الجامعة، كان **خاي احمد الزيزوة**، في وجاق مقصف الكلية، خبيرا بحق في تحضير الشاي المغربي المنعنع . وكان لخبرته في تحضير الشاي ومهارته في خدمة الزبناء فعل السحر في احتفاظنا بمائدة قرب وجاقه لمدة سبع سنوات بالتمام والكمال تخرج خلالها مجايلونا والأجيال الستة الموالية لهم وحصلوا على مناصب شغل وتسلقوا المراتب... ولم ننتبه إلا على وقع رنين القانون الجديد الذي لوح بالطرد في وجه المتقادمين. ولحسن حظنا، نلنا شهادة الإجازة الجامعية في ذات السنة. لكن حسن الحظ لا يعني الفرح بالمكسب لأننا كنا ننيف على الأربعين وكل مباريات الشغل تؤكد على سن الثلاثين كأقصى سن بالنسبة للمتباري. وهذا يعني أننا حملة شواهد محكوم عليهم بالعطالة إلى الأبد.

والحل؟
البعض نصحني بالبحث عن وسيط نافذ، يسهل عليه ما صعب على القانون.
البعض الآخر نصحني بالبحث عن وزير أو برلماني يستعمل سلطته ونفوذه لصالح ولوجي دنيا العمل. لكنني فضلت رفع دعوى قضائية للتخفيض من عمري وكان علي أن أنقص أحد عشر عاما من عمري ليصبح عمري ثمانية وعشرين عاما كي أحتفظ باحتمال اجتياز المباريات خلال السنتين المتبقيتين للسقف العمري المحدد: ثلاثون عاما.
خلال خمسة عشر يوما في المحاكم، سافرت في الزمن نحو الماضي وصار عمري ثمانية وعشرين عاما فتقدمت لأول مباراة. اجتزت الامتحان الكتابي بسلام. لكن، في الامتحان الشفوي، صعب علي الأمر وبدأ الفشل يلوح لي في عيون محاوري الثلاث على الحافة الأخرى من الطاولة. ولم أجد بدا من الارتماء على أقدام الأساتذة تحت الطاولة بيننا وتقبيل أحذيتهم واحدا واحدا، فردة فردة والتوسل إليهم بإنقاذي من الرسوب المحقق، طالبا الرحمة لآبائهم وأمهاتهم وأجدادهم وجداتهم ... ولم أستو إلا على وقع ربت أكثر من يد على أردافي تطلب مني القيام وتعدني بالنجاح في المباراة.
أخيرا دخلت دنيا الشغل.
أخيرا ولجت عالم الإنتاج.
لكن ثمة ضوابط وخطوط حمراء لا يجب علي المساس بها: أولياء نعمتي من المشغلين وزملائي من المستخدمين. وعليه، يجب أن ألجم ميلي للترقي وتحسين وضعيتي الاجتماعية حتى لا أصطدم مع مشغلي وزملائي وأن أكتفي بانتظار ترقيتي بالأقدمية ... هذا التوجه الحكيم فتح عيني على فلسفة تستحق الممارسة: " **الحياة بالأقدمية**" فهي أكثر أمانا من مخاطر المنافسة والمغامرة وأكثر من ذلك فهي مضمونة: ففي السنة المحددة تترقى دون امتحان أو شهادة أو أي شيء...
فتحت، إذن، عيني بمنظار جديد، منظار الأقدمية، وانبهرت للنجاحات التي تكون الأقدمية وراءها وللفتوحات التي تكون الأقدمية مبدعتها وللعلاقات التي تكون الأقدمية ملهمتها... ووجدتني أربح الأحكام القضائية بالتقادم، وأكسب احترام الصغار لأنني أقدم منهم، ويعتبرني الوافدون الجدد على المدينة "**كابن المدينة الأصلي**" لأنني أقدم منهم فيها، وآخذ التزكية من الحزب للتقدم للانتخابات لأنني أقدم من باقي المرشحين في اقتناء بطاقة العضوية في الحزب، ويصوت علي الجيران لأني قديم في الحي يعرفون أسرار دواخلي وأعرف مجاهل أعماقهم... هكذا، درجة درجة، وجدتني أقترب من مواقع تدبير الشأن العام والمساهمة في التنمية فأسسنا فيدرالية تنضوي تحتها كل الإطارات الجمعوية بالمدينة ندعو من خلالها المواطنين إلى تبني فلسفة " **الحياة بالأقدمية**" كسبيل أضمن لتحقيق الأهداف دون مخاطر أو مغامرات ولا نعير أدنى اهتمام لمن يحاول التشويش علينا بتسميتنا قدحا "**جمعية قدماء كسالى الثانوية الوحيدة بمدينة خاء**" ووصف عملنا التنموي على أنه انتقام لماضي الكسل الذي عشناه في ضروب المؤسسات التعليمية، ورغبة دفينة لقبر الإجتهاد وروح التنافس الشريف ومحو الكفاءة من الوجود وانبعاث سلطة قدماء الكسالى. لا يهمنا القيل والقال، نحن عمليون ونركز حاليا على الأشكال الضاغطة لتحريك الملف نحو المركز وعلى الأدوات القانونية التي ستعجل بتحقيق مطلب "**الأقدمية**" وجعله واقعا ملموسا. أما الأشكال الضاغطة فهي مجموع الإطارات والقوى الحية المنضوية تحت فدراليتنا وهم في غالبيتهم رفاق الأمس متشبعون بقيم "**الحياة بالأقدمية**". وقد كان لإيمانهم هذا بمصداقية مطلبهم دافع كبير في إنجازه وتحقيقه، بعد حوار مع السلطات المعنية قبل الخروج إلى الجماهير المبتهجة، صائحين:
- " أنجزت المهمة **!** لقد سويناها : فلا مباراة بعد اليوم ولا شواهد ولا كفاءة ولا مزايدة ولا رياء ... عيشوا حياتكم بالأقدمية. اقدموا وتقادموا وسترون بأم عيونكم تحقق الأماني التي استعصت على سواعدكم. أيها الإخوة، بشرى لكم وهنيئا لكم ولسلالتكم بالإنجاز التاريخي وبالحقيقة السعيدة وإلى لقاء نضالي قريب مع مطلب جماهيري جديد"...
الدموع تطل من عيني حين أتذكر تلك اللحظات التاريخية المؤثرة. لم أحلم في يوم من الايام بدخول التاريخ لسبب بسيط وهو أنني لم أعره في يوم من الأيام أدنى اهتمام. لكن الله يهدي من يشاء، متى شاء وحيثما شاء. فالحمد لله على هذه الهداية. الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الحمد لك والشكر لك على فضلك ونعمك، يا سيدى ومولاى، يا مالك يوم الدين، يا رب العرش العظيم، يا حى يا قيوم، يا واحدا يا أحدا يا فردا يا صمدا، يا أرحم الراحمين يا الله...

القصر الكبير، بتاريخ: 2006/01/03

كاتب

"إلاهي، من أكون غير الخوف الذي يشعر به الآخرون نحوي؟"

جون بول سارتر

في البدء، كانت الابتسامة على وجوه الجميع:

1- سأكون أسعد الناس حين أرى العالم يستقبلك ككاتب!...
2- أنا لا أطلب منك سوى أن تخصص لكل صديق من أصدقائك إهداء على الصفحة الأولى من كل إصدار!...
3- أريدك أن تكون من مرتبة أرنست همينغواي وألا تقبل بأقل من جائزة نوبل للآداب!...
4- أنا أريدك أن تتمم مطالب أبي الطيب المتنبي وألا تحيد عن طلب السلطة أبدا. فلا معنى لمثقف دون سلطة ولوكانت سلطة الكلمة!...
5- الأفضل أن تكون كالأعشى وتطلب المال حتى يصبح الذهب في صحون موائد فطورك وغذائك وعشائك!...
6- أنا أنتظر اليوم الذي ستصبح فيه مثل ج.ك. رولينز تبيع مئات الملايين من النسخ وتقلب الدنيا وتقعدها مع كل إصدار وتلهب شوق القراءة في الناس ليصطفوا في منتصف الليل أمام المكتبات طلبا لنسخة وحيدة بعد نفاذ الطبعات الأولى وتدفع اللصوص لتحويل اهتمامهم من سرقة المال إلى سرقة الكتب فيغيرون على مخازن الكتب وينهبونها ويعيدون بيعها في السوق السوداء!...
7- أما أنا فيكفيني ان أرى صديقي الذي اختار الطريق الأصعب أن أراه يختار المثل الأصعب في الطريق الذي اختاره: أن يتحلى بشيء من شيم جون بول سارتر وأن يكون ما يقوله، وان يمارس ما يبشر به، وان يكتب ما يفكر فيه حتى ولو أضاع صداقة كل من هم حواليه وصار وحيدا معزولا...

ثم بدأت الرائحة تصل خياشيم الضباع:

1- قيل لي أنك اقتحمت باب بورصة الثقافة مبكرا! لكن ألا تعلم أن هذا المجال لا يصلح للاستثمار والأرباح السريعة؟!...
2- كتابك صغير للغاية وأنا قرأته واقفا خلال نصف ساعة!...
3- لقد اخترت ثمنا غاليا لكتابك هذا!...
4- يقال أنك نميت رأسمالا هاما من خلال إصدارك الأخير!...
5- لقد اخترت توقيتا مناسبا. فصدور كتابك بصورتك الشخصية على غلافه الخلفي مهم للغاية خاصة وأننا على أبواب الانتخابات والتعريف بالمرشحين!

دهشة الأصدقاء:

- لقد اعجبني إصدارك أيما إعجاب! لكن ما يحز في النفس هو موقف فدرالية قدماء كسالى الثانوية الوحيدة بمدينة خاء من صدور عمل ثقافي جديد وميلاد مثقف جديد!...
- وما هو موقف فدرالية قدماء كسالى مدينة خاء؟
- ولكنك معني بالأمر! ألا تعرف موقفها؟!
- لا.

- حسنا. لقد قرروا أمس"**قتلك رمزيا**".

مطالب فدرالية قدماء كسالى الثانوية الوحيدة بمدينة خاء:

أولا: قتله رمزيا.
ثانيا: عزله عن كل الفاعلين من أصدقائه الذين يتم التعرف على اسمهم أو عنوانهم أو صورتهم.
ثالثا: عرقلة تنقل كتبه بالطعن في سيرته والتشكيك في قصده.
رابعا: منع المتعاونين معه من توزيع كتبه.
خامسا: إرغام كل من ساهم في التوزيع على سرقة المال الذي جمعه من بيع النسخ التي اؤتمن إياها.
سادسا: إرغام كل من ساهم في التوزيع ولا زال في حوزته نسخ متبقية على الاحتفاظ بتلك النسخ وبالمال ونكران معرفته إلى الابد.
سابعا: تخويف الأصدقاء من مغبة الاستمرار في مجالسته لكونه صار يشكل خطرا على الوضع العام.
ثامنا: التوسل، عبر الأقارب والمعارف وأبناء العم والخال، لدى الصحف المحلية والجهوية والوطنية لعدم نشر أعماله مستقبلا.
تاسعا: التأثير على أرباب المكتبات والأكشاك التي تعرض كتبه لدفعهم إلى إخفائها وإبعادها عن الزبناء القراء.
عاشرا: قتله نهائيا.

نور حكمة قديمة من صديق قديم:

حين يقدمك الناس للغير، في حضورك أو غيابك، اهتم بما يقال أكثر من أي شيء آخر. إنهم، في ذلك التقديم، لا يقدمون إلا أنفسهم...

ثم بدأ الافتراس:

*** كلام الجرائد:**

"تعرض، ليلة امس، الكاتب سين لاعتداء منظم على طريقة الجماعات المسلحة في عرض خيرة شوارع مدينة خاء، تحت الأضواء الليلية الساطعة: عصابة جيدة التحضير تعترض طريقه بشكل مسرحي مدروس ومعد سلفا، تشهر السكاكين في وجهه وتنهب عناوين أصدقائه في هاتفه النقال وساعته اليدوية... دون خوف من حسيب أو رقيب.

ففي الوقت الذي يكرم فيه المبدع عند الأمم المتحضرة، يحز في النفس أن نقرأ أخبارا تتكرر كهذه في ظل صمت مطبق يخفي تواطؤا شنيعا وتشفيا غير مبرر..."

*** كلام الزملاء في العمل:**

- لم يأت اليوم للعمل...
- لماذا؟!...
- لا زال تحت الصدمة...
- صدمة ماذا؟!...
- لقد دوهم بيته ليلا خلال نومه ولم يسرق أي شيء. فقد اكتفى المداهمون بتغيير مكان قطع خفيفة من الأثاث لتحذيره عند يقظته...

*** شكاية لدى مدير مكتب البريد بالمدينة:**

""إلى السيد مدير مكتب البريد بمدينة خاء
الموضوع: استفسار حول عدم التوصل بالمراسلات
تحية طيبة

أما بعد، فيؤسفني ان اشعركم بعدم توصلي بالمراسلات التي يشعرني بها مسبقا كل من يراسلني حتى اكون في الاستقبال. لكنني منذ فترة غير وجيزة وانا لا اجد في علبتي البريدية غير تواصيل الضرائب وفواتير الماء والكهرباء والهاتف والأنترنيت...

وتأسيسا على ما سبق، ولأن الأمر لم يعد مجرد صدفة أو مصادفة، فإنني أتقدم إليكم بطلب تبرير معقول لما حدث ولا زال يحدث.والسلام."

*** إعلان نتائج أول مباراة مهنية بعد ولوجي عالم الكتابة والنشر والتوزيع:**

التلاعب بنتائج المباراة، تزوير مجهودات المتبارين، الترسيب التعسفي، الإهانة، الإذلال، الإقصاء...

*** رد على تهديد بالاعتداء علينا لاحتجاجنا على نتائج المباراة وأشكال إخراجها:**

"إلى الكاتب المحلي لنقابة خاء

الموضوع: رد على تهديد

بعد التحية

تلقيت اليوم زوالا، على لسان رسولكم المناضل خاء ، نص التهديد الشفهي بالاعتداء على شخصنا. ولأنني تعرضت مند قراري حمل القلم كسبيل للإسهام في النقد والتنوير الاجتماعيين لسلسلة من الاعتداءات، فإنه لا يمكنني سوى أخذ تهديدكم مأخذ الجد. ولذلك أشعركم أن أي اعتداء سنكون موضوعه إما من طرفكم شخصيا أو من طرف آخرين، معلومين أو مجهولين، ملثمين أو مكشوفي الوجه سيجعل من تهديدكم هذا مرجعا للاعتداء ومن رسولكم المناضل خاء شاهد إثبات. كما أنني أحتفظ بنسخة من هذا الرد لليوم الأسود. والسلام."

أنفاس الضباع من أفواه الأصدقاء:

الأول: صديقي، هل تريد تغيير العالم؟!...

الثاني: الناس مرتاحون هكذان وانت مالك؟!...

الثالث: هل أنت مستعد للتضحية بحياتك فداء لعوام يحاربونك؟!...

العاشر: صديقي، استيقظ!...

المئة: إنك فقط توفر للطفيليين وحثالة الاحياء فرص عمل بتمكينهم من العض في جهودك ووجودك!...

الألف:استيقظ، يا صديقي، فالمبدع في عين الإنسانية في مكان آخر، هو كنز ثمين وهبة إلاهية إلى المعذبين في الأرض.ولكنه، بالنسبة للضباع حواليك، هو مجرد وجبة!...

القصر الكبير، بتاريخ 27 يناير 2006

موسم الهجرة إلى أي مكان

" اسم جدي: رحال ..
اسم أبي: رحال...
اسم أمي: (...)
أسماء تعني العنف والألم.. وعدم الاستقرار... هكذا كانت طفولتي..."

العربي باطمة
" الرحيل"
الكتاب الأول من السيرة الذاتية، ص، 9

سبح الشيخ بنظره فوق جحافل المنتظرين لصفارة الانطلاق لعبور البحر نحو الضفة الأخرى.
تملكه إحساس بالهيبة. وجه نظره نحو الضفة الأخرى ثم همهم:
- " سبحان الله ! شاطئان متقابلان لا يجمعهما في الوجود شيء: واحد مأذبة والآخر مجمر!"...
أوقف سبابته على الحبة الأخيرة من سبحته ليسأل الشاب الجالس وحيدا قربه منهمكا في قراءة كتاب يبدو من انحناءة ظهره أنه سلبه كل اهتمامه:
- ألا زلت تقرأ وأنت على حافة الهجرة والموت؟
- أنا أقرا روائع الحكي: "***ألف ليلة وليلة***"...
- وما معنى الروائع أمام المغامرة التي ننتظر جميعا انطلاقها؟
- سر ألف ليلة وليلة يكمن في قدرتها على جعل الانتظار أهون وأسهل، من خلال الحكي...
- إذا كان الأمر كذلك لماذا لا نحكي ونهون الانتظار ونتعارف ونتقارب أكثر؟
التحق بهم آخرون كانوا يسترقون السمع ففضحهم اندفاعهم:
- نعم، ليحكي كل منا ظروف وأسباب ودوافع إقدامه على الهجرة.
- فكرة رائدة وسأكون انا البادئ إذا ما وعدتموني بالإصغاء.
- كلنا آذان لكن تذكر أمرا هاما وانت تحدثنا.
- وما هو هذا الأمر؟
- تذكر أنه ليست معنا سلطة تخيفك أو تسجل أقوالك. فكل المنصتين إليك مهددون بالموت غرقا خلال هذه الرحلة. فلا تخف فضيحة أوتشهيرا من أحد. وكن ، وأنت تحدثنا، كمن يحتضر وهو يرى امام عينيه الحقيقة التي ظل يؤجل مواجهتها طول حياته...
- شرطكم مقبول، يا رفاقي في الغرق. وهذه قصتي...

<u>حديث المهاجر من وطن الممثلين:</u>

الوطن صار مسرحا لأسوء أنواع الممثلين. الناس أميون ويمثلون دور الآباء المسؤولين ويأخذون أبناءهم للمدارس. المدرسون يمثلون دور المربي والمعلم والمنشط. والتلاميذ، منهكين بالمحافظ الثقيلة وساعات الدرس الطويلة والمسافات البعيدة بين المدرسة والبيت، يمثلون دور النجباء المتجاوبين مع الدرس. والتلفاز يذيع نتائج الامتحانات ويمثل دور المطمئن

لتطور مستوى أبناء الشعب. والشعب مريض والأطباء يمثلون دور المعالج. والمحسوبون أقارب يمثلون دور المواظبين على زيارة القريب في المشفى. والمرضى يموتون ويحملون إلى ديارهم في سيارات يمثل بها سائقها كسيارة إسعاف. ويخرج أفراد عائلاتهم يصرخون ويندبون ليمثلوا دور المنكوب...

تمثيل في تمثيل في تمثيل... وأنا في حاجة إلى العيش ولو ليلة بعيدا عن هذه الخشبة الكبيرة. لذلك ، فقراري الرحيل قرار لا رجعة فيه.

حديث المهاجر من وطن المنفى:

الاغتراب والمنفى كلمات تتكرر في معاجم الدنيا وتثير في كل مرة الحنين إلى الأصل، إلى الوطن، إلى الأمل.

لكن أشنع أنواع الاغتراب هو أن تعيش غريبا في وطنك: حرا طليقا دون أن يعترف لك احد بجهودك، منفيا بين والديك وزوجتك وأبنائك وأقاربك وجيرانك... أن تعيش منفى الوطن بين أناس لا يتذكرون اسمك ولا يحتاجون معونتك ولا يرون في وجودك جدوى. هنا، أعلى درجات الاغتراب والنفي وأنا هارب منه.

حديث المهاجر من وطن حاسة السمع:

هنا أرض العمى. هنا أرض الآذان الطويلة. لا احد يرى. الكل يشغل حاسة واحدة: اسع. والويل لمن أصابته بحة أو فقد صوته!

هنا الكل يسمع لأن الكل هنا مغمض العينين.

هنا، لا مكان للصمت والسكينة والتأمل والإنصات للذات...

هنا، لا مكان لأمثالي. ولذلك لا مناص لي من الرحيل.

حديث الطفل المهاجر من تسلط الكبار وظروف الكبار:

لا أفهم كيف يسول والدي لأنفسهم أن يرسلاني للمحطة الطرقية بصندوق وكرسي لمسح أحذية الغرباء والمسافرين. يأخذان مني محفظتي ويسلماني صندوق مسح الأحذية:

- " هاك، يا ولدي، سير ترزق الله!"

هل أبواب الرزق موصدة إلا هذه الباب: مسح الأحذية؟ أصدقائي في المدرسة صباحا، وفي معهد الموسيقى مساء، وفي دار الشباب أيام عطلة نهاية الأسبوع، وفي الرحلات أيام العطل الكبرى... وأنا " سير امسح الصبابط!"

الإهانة !

وممن؟ !

من والدي...

أنا فكرت طويلا في الامر: فإذا كانت الإهانة هي كل ما يوجد هنا، فلماذا لا أجرب العبور إلى الضفة الأخرى لأحيا حياة أخرى؟ !

حديث المهاجر من وطن "كان" وأخواتها:

هنا أرض ال" **كان**". الناس هنا يعيشون على الذكرى والأمس والعلاقات البائدة. الناس هنا يخلدون الوهم ويقدسونه. لا أحد ينظر إلى الأفق. لا أحد ينظر إلى أجنحة الطيور وهي ترسم حروف السعادة الغدوية. لا أحد يحلم. هنا، الحلم نكتة . وأنا غير مستعد لأضحك غيري بأحلامي. ولذلك، أنا الآن اطلب الرحيل.

حديث المهاجر خوفا من "الانقراض":

في أوطان الناس الذين سبقونا في سلم التطور: إذا كنت تمتلك عقلا فإنك ستعيش عليه. وإذا كان عندك صوت جميل، فستعيش عليه. أو كانت عندك سواعد قوية ستعيش عليها. أو كانت عنك قدما ساحرة، فلسوف تعيش عليها... أما هنا، فوالله لو توفرت فيك كل الشروط وكل القوى وكل المواهب، لوجدت نفسك تسابق أراذل القوم لتمد يدك ولسانك وأعضاءك الأخرى توسلا لمن احتكر كل شيء كي يستمتع بهذا المنظر: منظر زحف جحافل المتسولين نحو يده العليا التي تبقى إلى الأبد خير من اليد السفلى...

قانون البقاء يخيرنا بين الانقراض في المحيط الأصلي أو الهجرة إلى محيط جديد يكفل سبل النمو والبقاء.

أما أنا فقد اخترت الهجرة إلى المحيط الجديد . وها آنذا أعد الدقائق للعبور الكبير.

حديث المهاجر من وطن "الغفلة":

لقد احتملت أكثر من اللازم الحياة في أرض "***اضرب على راسك!***" و"***الله يجعل الغفلة ما بين البايع والشاري***" و "***برق ما تقشع!***" و "***القانون لا يحمي المغفلين***" ولو أن نصف العباد أميون والنصف الآخر تحت مستوى الفقر...

الشعارات تلو الشعارات والناس تلوكها اتباعا، دون ملل ودون وعي. الناس تلوك الشعارات القاتلة التي لا تؤمن بها لا سباع الطير ولا سباع البر ولا سباع البحر... وأنا لست مستعد للتعايش وقتا أطول مع سباع الإنس. أنا، هنا، أطلب النجاة بجلدي. أنا، هنا، أطلب الرحيل الكبير.

حديث المهاجر الهارب من سلطة المنبطح:

السلطة توجد حيثما وجدت علاقة غير متكافئة بين طرفين. وأهم تجلياتها: ***الفعل والخضوع***. السلطة هنا ليست هي سلطة الدولة أو سلطة الرأسمال أو سلطة القبيلة أو سلطة العرق... إن السلطة، هنا، هي ***سلطة المنبطح***: قاتل الأنبياء والفلاسفة والمبدعين والزعماء والمحررين...

فحيثما بزغ شعاع جديد بنور جديد، خرج المنبطح بشعاراته وتهديداته:

-" فين حدك؟ "

- " باراكة علينا من سخونة الرأس؟"

- " ما خصنا صداع مع أحد!"...

ولأن سلطة المنبطح خفية،

ولأن المنبطح يبطش ويفتك بوحشية لا يمكن مقارنتها بأي من رموز السلطة الأخرى،

ولأنه لا صوت يعلو فوق صوت المنبطح...

فقد قررت الهجرة الكبرى.

حديث المهاجر من وطن الهجرة الدائمة:

هجرة أم تهجير؟

أنا لم أختر هجرة أرضي لولا الجفاف والقروض والحياة دون ماء أو كهرباء بعيدا عن المشفى والصيدلية والحمام والمدرسة والمحطة والسوق...

في البداية، هاجرت وأسرتي الصغيرة إلى أقرب مدينة صغيرة مجاورة واكترينا بيتا صرنا نعمل جميعا من أجل تسديد متطلباته من ماء وكهرباء وإصلاح...

ثم هاجرنا إلى مدينة أكبر في جنوب البلاد حيث صرنا نسكن في مقر عملنا فأصبحت حياتنا عمل في عمل حتى بيعت الشركة ونحن ضمن بنود عقد بيعها إلى رب عمل جديد سرعان ما أعلن إفلاس الشركة وألقانا إلى الشارع وأغلق عليه باب الشركة.

بعد ذلك، هاجرنا إلى مدينة أكبر في الشمال حيث اشتغلت " دفاعا " في غرف نوم البدينين من أثرياء المدينة الذين صعبت البدانة قدرتهم على الاستمتاع بالجماع ...

ولأنني تنقلت في كل دوائر الهجرة من نواتها في الأرياف إلى أقصى اتساعاتها في كبريات مدن الشمال، فإنني أجد نفسي الآن منساقا إلى الدائرة الكبرى والهجرة الكبرى...

حديث المهاجر من وطن الإرادة المصادرة:

الناس هنا بلا إرادة.

المشعود والساحر يمنح الإرادة للسذج والغفل والبله من الناس...

شيخ القبيلة يمنح الإرادة لبنات وأبناء قبيلته ...

رئيس الحزب ومالك مقراته والممسك بمفاتيحه يمنح الإرادة لمناضليه...

الإرادة التي يمكنها إحالة الإنسان إلى قوة بناءة أو مدمرة، هي، في الأصل، ملغاة. وأنا لا احتمل الحياة مع الدمى والعرائس.

كيف يمكنني أن أغير رأيي وأنا أشاهد بأم عيني كيف يصادر عراب الحزب حرية مناضليه ويحيلهم إلى أدوات بشرية تلوك ما حفظ لها من مبررات الطاعة: الظرفية غير المناسبة، الانضباط لقرارات الحزب، التاكتيك المرحلي...

وكيف يمكنني أن أغير رأيي وأنا أشاهد بأم عيني كيف يحيل عراب الحزب المناضلين إلى مجرد خشبيات تصنع المعادلات، إلى مجرد أرقام للمزايدة في لحظات البيع بالمزاد العلني أو السري... وكيف يحيل عراب الحزب المناضلين إلى مجرد رهائن "***ضاربين الصف***" في دكاكين سياسية صغيرة الحجم، ضيقة الأفق، تفتح أبوابها على دورات أولمبية يتدفق

خارجها المناضلون/ الرهائن بلافتات طويلة ومناشير كثيرة وحماسة يجهل المناضلون/ الرهائن جدواها وبرامج سياسية مقتبسة بتصرف عن قصص "***كليلة ودمنة***" ...

كيف يمكنني أن أغير رأيي وأنا أرى بأم عيني الدمى دمى والعرائس عرائسا؟

إنهم يسمون العمل المافيوي عملا سياسيا، والعصابة حزبا، والعراب أمينا عاما، والاختطاف استقطابا، والرهائن مناضلين، ولا حق للرهائن في الحرية الفردية...

فاشهد اللهم أني قد قلت وتطهرت قبل أن ارحل وأغيب.

<u>حديث المهاجر من وطن " الانتحار":</u>

هنا، كل شيء غال ما عدا حبال الشنق والأحزمة الناسفة وحقن السم. كل شيء غال: الفواكه واللحم والسكن والكتب... وأنا أريد أن أحيا. أنا عاشق للحياة. ولذلك، أنا راحل إلى حيث تشرق الشمس ولا تغيب. أنا راحل إلى حيث الإنسان هو أغلى كائن وكل الباقي في المتناول.

<u>حديث المهاجر من ثقافة "حالة الطوارئ" :</u>

حالة طوارئ.

الحياة والموت في ظل حالة طوارئ.

لم أعد أطيق حياة كهذه: جمود في جمود وتحفظ في تحفظ وخرس في خرس.

أعياد باردة يتصافح يومها الناس على عتبات البيوت، يغلقون الأبواب ثم يجلس الأب وزوجته وأبناءه يشربون الشاي ويأكلون الحلوى أو أمام المجمر يشوون اللحم السنوي. وفي المساء، بعد العصر، يبدأ طواف الشارع الرئيسي للمدينة في صمت: الإناث مع النساء، والأولاد مع الرجال. وقبل العشاء، ينتهي الطواف ويبدأ الانسحاب على أمل طواف آخر في عيد آخر...

أما في الحفلات، فأجواق موسيقية باردة تعزف لمدعوين ساهون. وفي جهة الحريم نساء تكترين لباسا جديدا أو باذخا وتهمس في آذان بناتهن أن يتحلين بالتعقل والحكمة والرزانة. وحتى إذا ما رقصن فليفعلن ذلك بأكتافهن وأرجلهن لأن بعض النساء الحاضرات جئن خصيصا للبحث عن زوجة لأبنائهن وهن يفضلن البنت العاقلة الرزينة الثابتة ولا يحبذن البنت اللعوب التي لا تكل من الرقص والضحك وتجاذب أطراف الحديث مع أي كان ... والنتيجة هي ان كل الحفلات، في هذه الأرض، هي حفلات باردة لدمى باردة تسيرهن أمهات مقاولات ...

برود في برود. وأنا أبحث عن دفء إنساني ينبعث من دفء قيمي.

هنا، أنا لم أجده. والآن، أنا مهاجر في سبيل البحث عنه.

<u>حديث المهاجر من جحيم " التحريم ":</u>

الجميع يتسابق ليحرم ويمنع ويبطل حواسك وعقلك فلا تنظر ولا تسمع ولا تلمس ولا تشم ولا تذق... حتى إذا ما أصابك الشلل الكامل، تكالبوا عليك ليحددوا لك ما يسمح رؤيته وما يباح سماعه وما يحل لمسه وما يمكن تذوقه وما يستحسن شمه وما يليق الفكير فيه...

هنا ثقافة التحريم. كل الناس تتسابق على تحريم هذا أو تحريم ذاك. الجميع يحرم ومن لم يحرم شيئا فهو لا زال يؤسس لصياغة مقبولة لتحريم شيء لم يخطر على البال.

كل النقاشات والدردشات والفرفشات حول الحرام والمحرم والتحريم... تحريم في تحريم. لاءات في لاءات... وأنا متعطش للاستماع ببراءتي وطفولتي.

<u>حديث المهاجر من أرض "الإرهاب الوجودي":</u>

أنا لست مهاجرا. أنا هارب بأعضائي.

لم تعد لي سوى كلية واحدة أصبحت أخاف عليها من طمع الطامعين. أدخل بيتي قبل غروب الشمس. حتى إذا ما خرجت من البيت حرصت على صحبة الناس وسلكت المسالك المأهولة. أخشى أن أختطف وتسرق مني كليتي المتبقية. خوفي صار وسواسا قاتلا، مرضا مزمنا...

لقد سرقت كليتي في إحدى العيادات. ولسرعة العملية، نسي الجراح المقص في معدتي. لكنها مجرد خدعة كي أعود إلى المشرط مرة اخرى، بعد فترة النقاهة، وأضع بين أيديهم كليتي الثانية أو إحدى خصيتي...

الإنسان، هنا، ينظر إليه كمجرد سلة أعضاء بشرية، مجرد قطع غيار وأنا أبحث عن مكان آمن، عن وطن آمن... وأنا مهاجر بحثا عن وطني ضالتي.

حديث الكاتب المهاجر من وطن صناعة الأمية:

لمن أكتب؟
من هو القارئ الذي سأتوجه إليه؟
العمال والفلاحين الأميين؟
أم الطلاب المنهارين؟
أم العاطلين الذين لا يملكون لا فلس ولا غد؟
أم الموظفين أسرى مثلث العمل والسوق والشباك الأوتوماتيكي؟
أم أرباب العمل الذين نزل عليهم من السماء إلهام مالي دون إلهام معرفي؟
أم أكتب لنفسي؟...
ثم لماذا أكتب؟
أأكتب لتجديد نظام العالم؟
أأكتب عن الحرية والعدالة؟
أي قيمة للحرية في مجتمع يحكمه الخوف من الفتنة؟
أي قيمة للعدالة في مجتمع ابتكر الرشوة للقضاء على كل العراقيل الإدارية؟
ثم أين سأضع كتبي؟
على الرفوف البعيدة العالية في مكتبات كتب السحر الأحمر والأسود والأبيض؟
أم في دواليب المكتبات المدرسية تحت المساطر والأقلام الرصاص والأقلام الملونة والدفاتر والطباشير؟
أم عند الأكشاك بين مرجوعات صحف الأسبوع الماضي؟
أم على جنبات الرصيف مع صور الفنانين الملونة والمجلات الإيروسية؟
أنا حددت وجهتي: سأهاجر لأتنفس هواء القيم النبيلة والثقافات المتعددة والتاريخ غير المخصي وأتصالح مع ذاتي وجذوري وأكمل ديني/ حريتي..

حديث المرأة المهاجرة من التحرش:

الرجال ؟ أنا عرفت تسعة رجال.
ثلاثة ماتوا بين احضاني، وثلاثة طلقتهم، وثلاثة طلقوني... ومع ذلك، يعتقد بعض الرويجلين أنني محرومة وأنني قد ألين مع الوقت ومع الاستئناس بعباراتهم البائدة.
على مدار الساعة، أتعرض للتودد الذي يخفي تحته رسائل بأنني غير مصونة لأنني بلا رجل، غير محترمة لأنني بلا رجل، غير محمية لأنني بلا رجل...
الرجل، بالنسبة لي، لم يعد هو كل ما أفكر فيه. أنا، لي أهداف أخرى وآمال أخرى. هدفي وأملي: ان أكون ذاتي. لكن، هنا، هذا مستحيل. هنا، لا وجود لامرأة في غياب ظل بشاربين. ولذلك، أنا الآن بينكم أنشد الهجرة الكبرى إلى حيث أحترم لذاتي وليس لوجود ذكر بجانبي.

حديث السياسي المهاجر من "سياسات اللعب":

لما انخرطت في العمل السياسي فقد فعلت ذلك لأجل **"العمل":** العمل السياسي والعمل النقابي والعمل الحقوقي والعمل الثقافي... وقد كنت أشعر بامتلاكي لرأسمال رمزي يخول لي الدفع بمشاريع العمل إلى الأمام...
لكنني بدأت أشعر في أوج ممارستي بأن الأمر في تحول مستمر. فما كان **"عملا"** صار مجرد **"لعب"**. وما كان جدا صار مزاحا خالصا. وصار الناس يلوكون معاجم ممسوخة دون علم بأن المفاهيم الممسوخة تنتهي بمسخ أصحابها. وصار الجميع يتحدث عن اللعبة السياسية واللعبة الانتخابية واللعبة الديموقراطية... وربما تحدثوا مستقبلا عن اللعبة النقابية واللعبة الحقوقية واللعبة الثقافية واللعبة الدينية... إلا أنني لا أريد أن أجايل جيل المسوخ القادم. ولذلك، عزمت على الرحيل: لا بديل لي عن الهجرة.

حديث الطالب المهاجر من التلاعب بالإرادات:

لم أعد أفهم...
نجمع الوثائق ونحضر قاعة الامتحان لاجتياز مباراة، فينجح الذين غابوا عن الامتحان.
نعبئ الجيران على التصويت لهذا المرشح، فيفوز في الانتخابات ذاك المرشح الذي قاطعه الجميع.

نفتح التلفاز لمشاهدة برنامجا مقررا سلفا، فيمرر مكانه نشاط مختلف رديء مباشر بالصوت والصورة والتعليق وال...
ولأنني لا أعرف ذاك الاختيار الذي يمكنني تبنيه دون إفساده من احد، فقد قررت الرحيل إلى حيث تحترم الإرادات. قراري سار المفعول ولن يثنيني عنه أحد.

حديث المقاول المهاجر خوفا على رأسماله:

هنا ندفع الضرائب، وهنا ندفع الرشاوي !
اجتمعنا في "***رابطة المقاولين***" وقلنا بصوت واحد :
" هذا لم يعد مقبولا: إما الضرائب وإما الرشاوي. أرباحنا تذهب كلها إما إلى خزانة الدولة أو إلى موظفيها. ولذلك، نحن نقترح استبدال مكاتب الضرائب والجبايات بمكاتب الرشاوي والأتاوات."
وقع على هذه العريضة أزيد من ألف مقاول ثم أرسلناها للمعنيين بالأمر ثم جاء الرد على الشكل التالي:
" الضرائب حق الدولة على المواطنين النشطين سواء كانوا شخصيات مادية أو معنوية. أما الرشاوي فشغلكم. فتدبروا أمركم مع أشغالكم لكن احترموا واجباتكم اتجاه الدولة التي تحمونها وتحميكم"...
ليس لي من سبيل يمكنني اللجوء إليه لحماية رأسمالي. ولذلك، فقد قررت الهجرة.

حديث المهاجر من وطن الجغرافيا إلى وطن المواطنة:

الوطن؟...
الوطن ليس بقعة أرضية لها حدود على الخارطة وحرس بالكلاشنكوف يتناوبون على مراقبة الأسلاك الشائكة التي غرسوها بأيديهم...
الوطن علاقات تشدك إلى ثوابت تعتز أنت بها وتغتني هي بك...
حيثما وجدت الكرامة والشرف والحق والعزة... فثمة الوطن.
ليس مفروضا علي أن أظل، مدى الحياة، حبيس السقف الذي ولدت فيه والجدران الاربعة التي سمعت صرختي الأولى.
انا سمكة، يا رفاقي. والسمكة يكفيها الماء كي تحيا. حيثما وجدت المأوى الآمن والماء الصحي والغذاء الوفير... فثمة وطنها.
أنا سمكة، يا رفاقي. وأنا مهاجر بحثا عن الماء الضامن للبقاء.

حديث المهاجر من أرض السجون:

لما كنت أسيرا، كنت أفكر بمنطق" **هنا وبرا**". هذه الثنائية كانت وحدها تحفزني على مقاومة التذمر والاستمرار في الحياة إلى حين انقضاء تاريخ الأسر. لكن، الآن، وقد خرجت، بعد كل هذه المدة الطويلة في ظلام السجن، لم أجد تلك ال"**برا** " التي كانت تكون ثنائية التوازن النفسي والعقلي والوجودي في حياتي داخل الزنازن...
أنا، الآن، أعيش بينكم، أيها المتمتعون بشهادات حسن السلوك، ولكن بعقلية السجين.
إنني لا أرى ما حوالي غير مرافق لسجن عظيم حيث كل من حوالي مجرد سجناء بؤساء حتى وهم تحت جلابيب العيد أو بدلات الاجتماعات فأنا لا أراهم يرتدون إلا لباس السجناء.
فيوم الاثنين، أراهم يرتدون اللون الوردي. ويوم الثلاثاء يرتدون الأبيض المخطط بالأسود. ويوم الأربعاء يرتدون الأصفر... ولهذا، أنا، هنا، بينكم أنتظر عبور البحر إلى حيث يمكنني العيش حرا بين أناس أحرار.

صوت يغني:

" يا الرايح وين مسافر؟
تروح، تعيا وتولي
اشحال ندموا العباد الغافلين
قبلك وقبلي..."

انطباع شارد:

هل كنا نعيش كل هذا العنف فرادى ولا يعرف أحدنا شقاء الآخر؟
يالإهانة!
لم يكن الواقع بهذا الوضوح في يوم من الأيام! لم تكن حياتنا مفضوحة بهذه الدرجة لأننا لم نكن حميميين في تحايانا، ولا في كلامنا، ولا في خصامنا، ولا في صداقتنا، ولا في جلوسنا ولا في فراقنا...

كنا منافقين. وكنا نؤدي الثمن أمراضا لا علاج لها: سكري وشلل نصفي وسرطان وانهيار عصبي...
لم نكن نرى الواقع بهذا الوضوح لأننا كنا نخاف بعضنا البعض. كنا نخاف انفضاح أمرنا... والآن عبد سقوط ورقة التوت عن الجميع، تخلصنا من قيم الخوف والفضيحة.
الآن، ليس لدينا ما نخاف عليه لأننا جميعا عرايا...
يا للعار!
علينا أن نكفر عن جبننا. إننا لا نستحق هذه الأرض! إننا لا نستحق هذا الوطن! لقد خذلناه بعشرة آلاف سنة من الوجود الجبان! وعلينا أن نفكر عن خطيئتنا...
علينا أن نهاجر وألا نعود إلا بعد أن تصبح الشجاعة صفة وجودنا. علينا أن نهاجر وألا نعود إلا بعد أن تصبح الحرية نظام تفكيرنا. علينا أن نهاجر وألا نعود إلا بعد أن تصبح الكرامة غاية كينونتنا...
أيها الأصدقاء، ماذا تقترحون ونحن بين الصحاري والبحار: التيه أربعين عاما في الصحاري أم عبور مجاهل البحار؟...

اقتراح:
كل شجعان التاريخ سلكوا طريق البحر. لكننا لا نملك عصا موسى لنشق البحر. ولا عندنا سفن طارق بن زياد حتى نعبر بها البحر ثم نحرقها بعد الوصول... نحن مجرد جحافل من المنبوذين لا نملك غير سواعدنا وأفواهنا: فما رأيكم لو شربنا جرعة واحدة لكل واحد من هذا البحر؟ سيجف البح وسنعبر الأرض المجففة مشيا على الأقدام وسنصل إلى الضفة الأخرى بسلام!!!

رد فعل الشجر والحجر:
أتذهبون حقا وتتركوننا لوحدنا؟!
هل هذا النوع من الهجرة قادر على تطهيركم فعلا؟!
إن كل من يهاجر يحمل معه ما هو هارب منه. إنكم تحملون معكم تناقضاتكم وتناقضات واقعكم. إن من يهاجر بحثا عن تطهير سيقضي حياته مهاجرا من بلاد إلى بلاد بحثا عن براءة غير ممكنة.
الهجرة الحقيقية هي هجرة سلبياتكم. إنكم مهاجرون بنفس القبضات الممكنة على رقابكم. لن تتطهروا ولن تتحرروا وهجرتكم هذه هي فقط عقوبة إضافية لمعاناتكم التاريخية.

كورال المهاجرين الفبروزيين وهم يشمرون عن سواعدهم ويفتحون أزرار قمصانهم استعدادا لشرب البحر:

سنرجع يوما الى حيـــنا ۞ ونغرق في دافئات المـنى
سنرجع مهما يـمر الزمـان ۞ وتنآى المسافات ما بينــنا
فيا قلب مهـلا ولا ترتـمـي ۞ على درب عـودتنا موهـنا
يعـز علينا غدا أن تعــود ۞ رفوف الطيور ونحن هنا

سنة 2003

النصوص

السيرة الذاتية لمحمد سعيد الريحاني

- حاصل على شهادة **الماستر** في **الترجمة والتواصل والصحافة** من **مدرسة الملك فهد العليا للترجمة** بطنجة/المغرب (تابعة **لجامعة عبد الملك السعدي**، تطوان/المغرب)، و على شهادة **الماستر** في **الكتابة الإبداعية** من كلية الفنون والعلوم الاجتماعية **بجامعة لانكستر** بالمملكة المتحدة، وعلى شهادة **الإجازة في الأدب الإنجليزي** من كلية الآداب والعلوم الإنسانية **بجامعة عبد الملك السعدي**، تطوان/المغرب.



- عضو "**اتحاد كتاب المغرب**"منذ 2008، وعضو هيأة تحرير "**مجلة كتابات إفريقية**" الأنغلوفونية ***African Writing Magazine*** الصادرة من مدينة بورنموث ***Bournemouth*** جنوب **إنجلترة** منذ 2010، وعضو الهيئة الاستشارية **للتقرير العربي للتنمية الثقافية** الذي تصدره **مؤسسة الفكر العربي** من **بيروت** منذ 2010...

صدر له باللغة العربية:

- "**الاسم المغربي وإرادة التفرد**"، دراسة سيميائية للإسم الفردي **(2001)**
- "**في انتظار الصباح**" ، مجموعة قصصية **(2003)**
- "**موسم الهجرة إلى أي مكان**"، مجموعة قصصية **(2006)**
- "**الحاءات الثلاث**"، **أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (**حاء الحلم**، 2006)
- "**الحاءات الثلاث**"، **أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (**حاء الحب**، 2007)
- "**الحاءات الثلاث**"، **أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (**حاء الحرية**، 2008)
- "**تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب**" (الجزء **الأول**، 2009)
- "**تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب**" (الجزء **الثاني**، 2011)
- "**موت المؤلف**"، مجموعة قصصية **(2010)**
- "**حوار جيلين**" (مجموعة قصصية مشتركة مع القاص المغربي **إدريس الصغير**) 2011
- "**عَدُوُّ الشَّمْسِ، البَهْلَوَانُ الذِي صَارَ وَحْشاً**"، **أول** رواية عن **الثورة الليبية** (2012)
- "**وراء كل عظيم أقزام**"، مجموعة قصصية **(2012)**
- "**لا للعنف**"، مجموعة قصصية **(2014)**، منشورات **مكتبة سلمى** بتطوان/المغرب
- "**حاء الحرية**" (خمسون قصة قصيرة جدا)، **(2014)**، منشورات **وزارة الثقافة المغربية** بالرباط/المغرب
- "**العودة إلى البراءة**"، مجموعة قصصية (2015)، منشورات **اتحاد كتاب المغرب** بالرباط/المغرب.
- "**صدقية الشعار الإعلامي العربي من خلال بناء الصورة الإخبارية**" (شعار قناة الجزيرة، "**الرأي والرأي الآخر**"، نموذجا)، 2015.

وصدر له باللغة الإنجليزية:

- ***Waiting for the Morning*** *(Short Stories)* Bloomington (Indiana/USA): Xlibris, 2013. **ISBN:** 978-1493104093

كما استضافته عدة كتب **للحوار**:

- **أنس الفيلالي**، "**رَيْحَانِيَاتٌ**" (سلسلةُ حوارات شاملة منْ **أربعينَ** لقاءً صحفياً مع **محمد سعيد الريحاني**)، عمان/الأردن: **دار الصايل للنشر**، الطبعة الأولى، 2012 (الطبعة المغربية: **مكتبة سلمى الثقافية**، تطوان/المغرب، 2015).
- كتاب جماعي، "**مع الريحاني في خلوته**" (ثلاثون حوارا في الفن والثقافة والأدب مع **محمد سعيد الريحاني** أجراها أدباء ونقاد وإعلاميون عرب) تطوان/المغرب: **مكتبة سلمى الثقافية**، الطبعة الأولى، 2015.

أشرف على **الترجمة الإنجليزية** للنصوص المكونة **للقسم المغربي** في عدة أنطولوجيات نشرتها دور نشر "**ريد سيه بريس**" و"**أفريكا وورلد بريس**" و"**مالت هاوس**":

- "**صوت الأجيال: مختارات من القصة الإفريقية المعاصرة**"، ***Speaking for the Generations: An Anthology of Contemporary African Short Stories*** (ثمانية نصوص مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لثمانية قصاصين مغاربة)، 2010.
- "**أنطولوجيا الشعر الإفريقي الجديد**"، ***We Have Crossed Many Rivers: New Poetry from Africa*** (خمس قصائد مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لخمسة شعراء مغاربة)، 2012...

له عدة **دراسات في الإعلام**، قيد الإعداد للطبع:

- "**مساهمة الإعلام في حوار الحضارات: الأسباب والوظائف والغايات**".
- "**الصورة الإخبارية في إعلامي الحداثة وما بعد الحداثة**" (دراسة مقارنة للأداء الإعلامي لقنوات **السي إن إن**، **أورونيوز**، **فرانس 24** و**الجزيرة**).